محاضرات في علوم القرآن



دكتور محمد سالم
دكتور صلاح الصاوي

الجامعة الأمريكية المفتوحة

THE AMERICAN OPEN UNIVERSITY

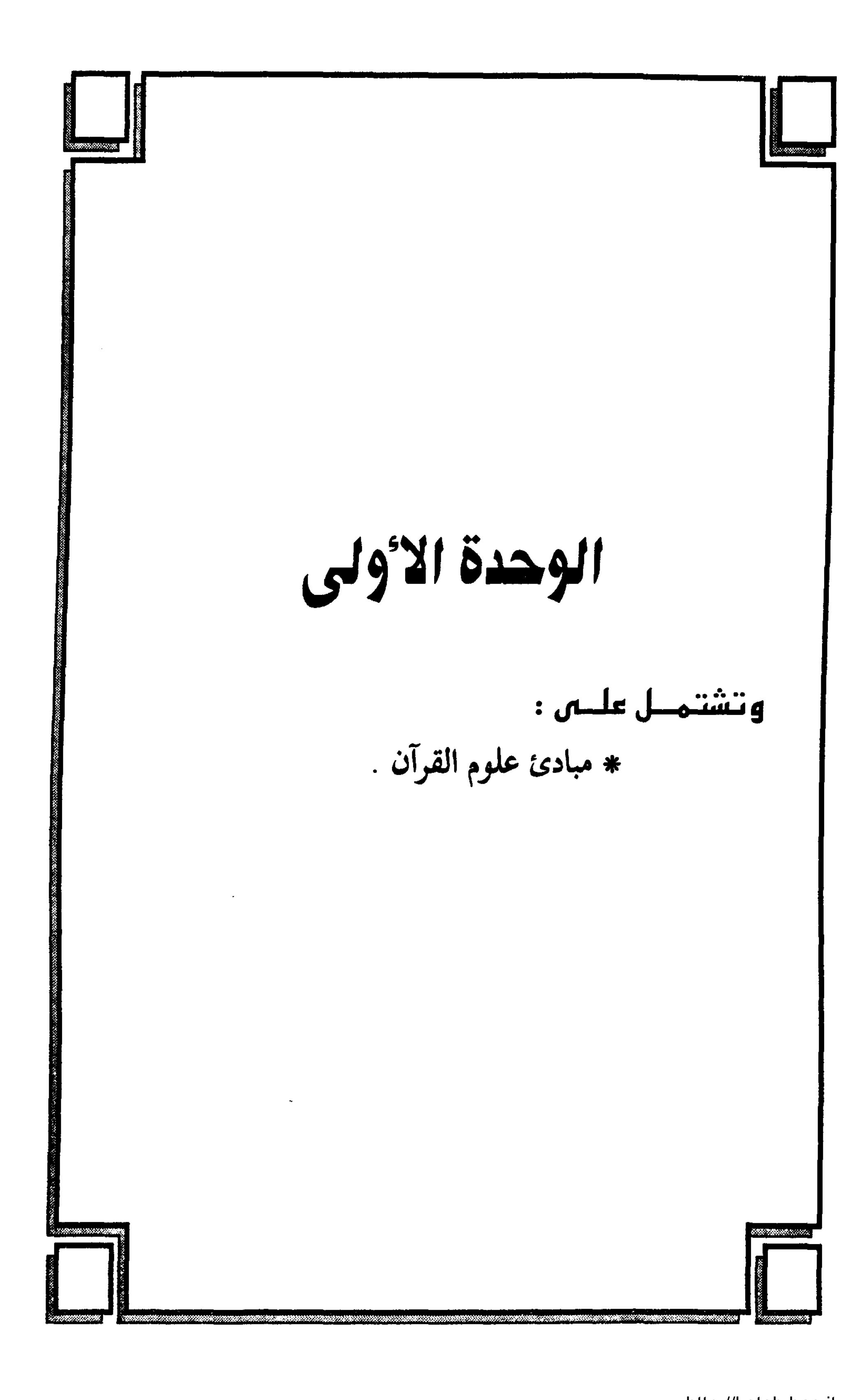
3400 Payne St., Suite 200 • Falls Church, VA 22041 U.S.A

الجامعة الأمريكية المفتوحة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

محاضرات في علوم القرآن

دكتور محمد سالم

دكتور صلاح الصاوي



الوحدة الأولى

وتشتمل على :

* مبادئ علوم القرآن .


بسم الله الرحمن الرحيم

الوحدة الأولى

مبادئ علوم القرآن

الأهداف الخاصة

يتوقع منك - عزيزي الدارس - بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً علي معرفة ما يلي :

[١] معني القرآن والفرق بينه وبين كل من : الحديث القدسي والحديث النبوي .

[٢] موضوع علوم القرآن والفائدة من دراسته .

[٣] كيفية نشأة هذا العلم ومراحل تدوينه .

[٤] حكم الشرع في دراسة علوم القرآن .

[٥] فضل علوم القرآن ، ونسبته إلي غيره من العلوم .

ويقدر ما تتضح هذه الأهداف في نفسك يكون إقبالك أكثر علي دراسة هذا العلم الجليل القدر .

محتويات الوحدة الأولى

١- تعـريف علـــوم القـــرآن

٢- موضـــوع علـــوم القـــرآن

٣- الفائدة من دراسة علوم القرآن

٤- نشأة علوم القرآن والواضع لها

٥- اسمه

٦- استمداده

٧- حكم الشرع في دراسته

٨- فضله

٩- نسبته إلى غيره من العلوم

المقدمة

تحتل علوم القرآن منزلة مهمة في الدراسات الإسلامية علي وجه العموم، وتفسير القرآن الكريم علي وجه الخصوص، ودراسة علوم القرآن تساعدك عزيزي الدارس علي فهم القرآن الكريم وفقه معناه، كما تعرفك بسمو ما احتواه القرآن الكريم تعبيراً وتشريعًا.

أولاً

تعريف علوم القرآن

أمامنا – عزيزى الدارس – مركب إضافى مكون من كلمتين كلمة (علوم) ، وكلمة (القرآن) وحتى نفهم ... هذا المركب الإضافى لابد علينا أن نفهم أجزاءه : المضاف والمضاف إليه ، فإذا أردنا أن نتعرف على الجزء الأول من مركبنا الإضافى قلنا:

التعريف بالعلم :

العلم لغة : إدراك حقيقة الشئ ، كما تقول : علمت محمداً أى أدركت حقيقته، أو إدراك الحكم على الشئ، كما تقول : علمت محمداً عالمًا ، أى : أنك أدركت محمداً ، وأدركت العلم وحكمت به على محمد [القاموس المحيط مادة ع ل م وتاج العروس مادة ع ل م] .

أما تعريف العلم فى الاصطلاح : فهو : إدراك جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل، فمثلاً : نحن نعلم وجود الله عز وجل بالإدراك اليقينى الجازم المطابق للواقع ونفس الأمر وهو أن الله موجود .

وهذا الإدراك ليس ناشئا عن عماهة الجهل إنما هو ناشئ عن الأدلة النقلية والعقلية التى تدل قطعًا على وجود الله عز وجل .

ثم صارت كلمة (العلم) تطلق بعد حركة التأليف والتدوين للعلوم على مسائل العلم ، فمعنى علوم القرآن : **مسائله التى يبحث فيها مثل :** أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل ، وأسباب النزول ، والمكى والمدنى ، والمحكم والمتشابه ، وإعجاز القرآن ، والخاص والعام ، إلى آخر ما سيأتيك من مباحثه التى ستدرسها مفصلة فى هذا العلم إن شاء الله .

وبهذا عزيزى الدارس ، نكون قد استوفينا ما أردنا بيانه من العلم لغة واصطلاحا، وهو الجزء الأول من المركب الإضافى .

فماذا عن الجزء الثانى وهو المضاف إليه ، كلمة (القرآن) .

التعريف بالقرآن :

القرآن فى اللغة : مصدر قرأ ، مرادف للقراءة ، تقول : قرأت الكتاب قراءة ، أو قرأت الكتاب قرآنا ، وورد ذلك فى القرآن الكريم ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ [القيامة : ١٧] أى قراءته .

قال الراغب الأصبهانى : والقرآن فى الأصل مصدر ، وقد خص بالكتاب المنزل على محمد ﷺ [المفردات فى غريب القرآن ص ٤٠٢ ط مصطفى الحلبى] .

ويطلق بالاشتراك اللفظى على مجموع القرآن وعلى كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلوا آية من آياته صح أن تقول إنه يقرأ القرآن، قال تعالى: ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، وقال تعالى: ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾ [النحل : ٩٨] .

القرآن فى الاصطلاح : وذكر أهل العلم فى تعريف القرآن الكريم أنه : كلام الله ، المنزل على محمد ﷺ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه .

شرح التعريف

■ **كلام الله :**

الكلام جنس فى التعريف يشمل كل كلام، وإضافته إلى الله يخرج كلام

غيره من الإنس والجن والملائكة.

■ **والمنزل :**

يخرج كلام الله الذي استأثر به ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ [الكهف:١٠٩] .

■ **على محمد ﷺ :**

يخرج ما أنزل على الأنبياء من قبله كالتوراة والإنجيل .

■ **المنقول بالتواتر :**

يخرج قراءات الآحاد والقراءات الشاذة .

■ **المتعبد بتلاوته :**

يخرج الأحاديث القدسية عند من يرى أنها منزلة بألفاظها من عند الله .

■ **المتحدى بأقصر سورة منه :**

يخرج الأحاديث القدسية كذلك لأن الإعجاز والتحدى خاص بالقرآن .

فإذا تأملت عزيزى الدارس فى هذا التعريف ، وجدت فيه أربع خصائص: الإنزال على محمد ﷺ ، والنقل بالتواتر ، والتعبد بتلاوته ، والإعجاز .

الفرق بين القرآن الكريم وبين الحديث القدسى :

لكى نعرف الفرق بين القرآن الكريم وبين الحديث القدسى يحسن أن نعرف بالحديث القدسى كما عرفنا بالقرآن الكريم

الحديث فى اللغة : ضد القديم ، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به وينقل

ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أومنامه.

والقدسى نسبة إلى القدس وهو الطهر، فالتقديس هو التطهير، والتقدس هو تنزيه الله تعالى، وهى نسبة تدل على التعظيم لأن مادة الكلمة فى اللغة تدل على التنزيه والتطهير.

وهناك فروق بين القرآن وبين الحديث القدسى نشير إلى أهمها فيما يلى:

ـ أن القرآن الكريم وقع به التحدى والإعجاز والحديث القدسى لم يقع به ذلك.

ـ أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى، أما الحديث القدسى فقد يروى مضافا إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء، وقد يروى مضافا إلى النبى ﷺ وتكون النسبة إليه نسبة إخبار، فيقال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه.

ـ أن القرآن الكريم منقول بالتواتر فهو قطعى الثبوت، أما الأحاديث القدسية فأغلبها أخبار آحاد فهى ظنية الثبوت، والحديث القدسى قد يكون صحيحا وقد يكون حسنا وقد يكون ضعيفا.

ـ أن القرآن الكريم وحى باللفظ والمعنى، أما الحديث القدسى فهو وحى بالمعنى فقط دون اللفظ على الصحيح من قولى العلماء، ولذلك تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين.

ـ أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته، فهو الذى تتعين القراءة به فى الصلاة، وقراءته عبادة يثيب الله عليها بكل حرف عشر حسنات كما جاء فى الحديث: « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿ **ألم** ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف » [رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح] أما

الحديث القدسى فلا يجزئ فى الصلاة، ويثيب الله تعالى على قراءته ثوابا عاما، فلا يصدق عليه الثواب الذى ورد ذكره فى تلاوة القرآن.

الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

الحديث النبوى هو ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

ـ فالقول مثل قوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» .

ـ والفعل مثل ما ثبت من تعليمه ﷺ لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال: « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ، وكما ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الحج وقال لهم: «خذوا عنى مناسككم » .

ـ والإقراركأن يقر أمرا علمه عن أحد أصحابه من قول أو فعل، ومن أمثلته ما رواه البخارى ومسلم من أن رسول الله ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بـ﴿ **قل هو الله أحد**﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال سلوه لأى شئ يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبى ﷺ: « أخبروه أن الله يحبه » [متفق عليه] .

ـ والصفة مثل ما روى من أنه ﷺ كان لا يرد فى الطعام موجودا ولا يتكلف مفقودا، وأنه لم ينتقم لنفسه قط، وأنه ليس بفظ ولا غليظ ولا بسخاب فى الأسواق...الخ .

ويفرق بين الحديث القدسى وبين الحديث النبوى بأن الحديث القدسى وحى بالمعنى من الله عز وجل كما سبق، أما ألفاظه فهى من عند رسول الله ﷺ على الأرجح من قولى العلماء، أما الأحاديث النبوية فهى قسمان: قسم توقيفى تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحى وبينه للناس بكلامه، وقسم اجتهادى وهو الذى

استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن لأنه مبين له، وهذا القسم يقره الوحى إن كان صوابا ويسدد ما عسى أن يقع فيه من خطأ.

وبهذا يمكن أن يقال إن الأحاديث النبوية مردها جميعا إلى الوحى، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ **وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى**﴾ [النجم: ٣ ، ٤] .

فإن قيل: إذا كان الحديث النبوى وحيا بالمعنى كالحديث القدسى فلماذا لا نسميه قدسيا أيضا ؟

ويجاب على ذلك بأنا نقطع فى الحديث القدسى بنزول معناه من عند الله تعالى لورود النص الشرعى على نسبته إلى الله بقوله ﷺ: قال الله تعالى: ولذا سمى قدسيا، أما الأحاديث النبوية فلم يرد فيها مثل هذا النص ، فيحتمل فى كل واحد فيها أن يكون توقيفيا أو أن يكون مستنبطا بالاجتهاد، ولذا سمينا الجميع نبويا وقوفا عند القدر المقطوع به، ولو كان لدينا ما يميز الوحى التوقيفى منها لسميناه قدسيا كذلك .

أسماء القرآن وأوصافه

لقد سمى الله كتابه بأسماء كثيرة ، نذكر منها:

* القرآن قال تعالى: ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ [الإسراء: ٩] .

* الكتاب ، قال تعالى: ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم** ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

* الفرقان ، قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ [الفرقان: ١] .

* الذكر ، قال تعالى: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر: ٩] .

* التنزيل ، قال تعالى: ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين** ﴾ [الشعراء : ١٩٢] .

وقد غلب من أسمائه القرآن والكتاب ، وقد روعى فى تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن ، كما روعى فى تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام ، وفى التسمية بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه أن يكون محفوظا فى الصدور وفى السطور جميعا، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ لا يوافق رسم المصحف المنقول بالتواتر، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر، وبهذه العناية المزدوجة بقى القرآن محفوظا فى حرز حريز، وتحقق وعد الله جل وعلا ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر: ٩] .

وكما سمى الله كتابه بأسماء كثيرة فقد وصفه بصفات كثيرة كذلك ، منها :

* النور ، قال تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾ [النساء: ١٧٤] .

* الهدى والشفاء والرحمة والموعظة ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ [يونس: ٥٧] .

* أنه مبارك ، قال تعالى : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ [الأنعام: ٩٢] .

* أنه عزيز ، قال تعالى : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز**﴾ [فصلت: ٤١] .

* أنه مجيد ، قال تعالى: ﴿ **بل هو قرآن مجيد** ﴾ [البروج: ٢١] .

* أنه مبين ، قال تعالى: ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ [البقرة:٩٧] إلى غير ذلك من الصفات الحميدة المبثوثة فى تضاعيف القرآن الكريم.

وكما سماه ووصفه ، فقد ذكر له - تعالى - وظائف جليلة نذكر منها :

* أنه يهدى للتى هى أقوم ، قال تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ [الإسراء : ٩] .

* أنه يبشر المؤمنين الصالحين بما وعدهم الله ، قال تعالى : ﴿ **ويبشر المؤمنين الذين**

يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾ [الإسراء : ٩]

* أنه ينذر الكافرين المفترين على ربهم ، قال تعالى : ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم ﴾** [الكهف : ٤ - ٥]

تعريف علوم القرآن لقباً :

عرفنا فيما سبق كلمتى علم وقرآن ، اللتين يتكون منهما هذا المركب الإضافى (علوم القرآن) ، لكن المركبات الإضافية قد تصير علماً ولقباً على معنى معين أو علم معين فتصبح لها دلالة جديدة، ولنضرب لك مثالاً :

فإذا قلنا .. عبد الله .. فإنها تطلق باعتبارها مركباً إضافياً على كل من عَبَدَ الله وتطلق باعتبارها علماً ولقباً على شخص سماه أبوه (عبد الله) .

فتعريف علوم القرآن بالمعنى اللقبى : علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيثيات مخصوصة كنزوله وجمعه ، وترتيبه ، إلى آخر ما يعرض لموضوع هذا العلم .



ثانياً بيان موضوع علوم القرآن

موضوع هذا العلم هو **القرآن الكريم** من حيث النظر فى كل المباحث المتعلقة به، سواء من حيث نزوله أو ترتيبه أو كتابته أو جمعه أو قراءاته أو إعجازه ونحو ذلك مع جمع ذلك وترتيبه فى كتاب واحد .



ثالثاً الفائدة من دراسة علوم القرآن

الفائدة من دراسة علوم القرآن أنه بمثابة **المنهج الضابط** للعقل الإسلامى على وجه الخصوص وللعقل الإنسانى على وجه العموم فى تعامله مع القرآن وتفسيره

وفوق ذلك كله .. فالفوائد من دراسة علوم القرآن كثيرة منها :

١ – **حسن تفهم القرآن الكريم، والانتفاع به علما وعملاً**، وإلا فمن جهل مباحث علوم القرآن، واقتحم أسوار القرآن المنيعة، عز عليه فهم القرآن الكريم، ومثال ذلك:

ما وقع من الصحابى الجليل قدامة بن مظعون رضى الله عنه من الخطأ فى فهم قول الله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين** ﴾ [المائدة : ٩٣] .

روى الدارقطنى من حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – أن الشُّرَّاب – يعنى شراب الخمر – كانوا يُضربون فى عهد رسول الله ﷺ بالأيدى والنعال والعصى حتى توفى رسول الله ﷺ فكانوا فى خلافة أبى بكر أكثر منهم فى عهد رسول الله ﷺ ، فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفى، ثم كان عمر من بعده يجلدهم أربعين حتى أتى برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب فأمر به أن يجلد، فقال: لم تجلدنى؟ بينى وبينك كتاب الله ، فقال عمر : وفى أى كتاب الله تجد ألا أجلدك ؟ فقال له : إن الله تعالى يقول : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا** ﴾ . فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله ﷺ بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها، فقال عمر : ألا تردون عليه ما يقول ؟ فقال ابن عباس : إن هؤلاء الآيات أنزلت عذراً لمن غبر (أى لمن شرب الخمر قبل التحريم) وحجة على الناس، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر ..**﴾ [المائدة : ٩٠] إلى آخره فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإن الله قد نهاه أن يشرب الخمر، فقال عمر : صدقت ماذا ترون؟ فقال

على : إنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفترى ثمانون جلدة ، فأمر به عمر فجلد ثمانين جلدة [الدارقطنى كتاب الحدود]

٢ـ رد مطاعن الطاعنين على القرآن وحقيقته .

فبدراسة هذا العلم يستطيع الإنسان المسلم أن يرد على الشبهات التى أثيرت عن القرآن من قديم ، وكذلك عن الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام حديثًا ، على ما سيأتيك من أمثلة عديدة أثناء دراستك لهذا العلم الجليل .

٣- الإلمام بتاريخ القرآن الكريم والوقوف على مدى عناية الأمة به ، والتحقق من مصداق قوله تعالى فى بيانه الإلهى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩] .

٤- الوقوف على حجية القرآن وإعجازه وحقية كونه من عند الله .



رابعًا نشأة هذا العلم

مباحث علوم القرآن ترجع فى جملتها إلى مصادر ثلاثة :

١- الوحى من قبل الله تعالى .

٢- البيئة المحيطة بذلك الوحى من الزمان والمكان والأشخاص والوقائع

٣- لغة الوحى : التى هى اللسان العربى المبين .

وبيان ذلك :

أن علوم القرآن وجدت منذ نزول القرآن الكريم ، فما دام هناك قرآن ينزل من عند الله عز وجل لزم حتما وجود أصول وضوابط وقواعد لفهم كلام الله المنزل على النبى ﷺ ، وهذه هى مقومات علوم القرآن وحقيقته

فالواقع أن قواعد علوم القرآن كانت مستقرة وثابتة فى نفس النبى ﷺ وأصحابه، وكانوا يسيرون فى فهم القرآن الكريم على ضوئها وإن لم يصرحوا بها ، فغنى عن البيان أن النبى ﷺ هو الموحى إليه ، المبين له كل ما ينبغى أن يكون عليه تحمل الوحى وما ينبغى أن يكون عليه أداؤه من الأحرف والكيفيات التى تؤدى بها هذه الأحرف ، ثم ما يحتاج إليه ﷺ مع ذلك من بيان معانى هذا الوحى المنزل عليه حتى يمكنه ﷺ الوفاء بوظيفة البيان الموكلة إليه كما قال تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ [سورة النحل : ٤٤] .

ومن جهة البيئة المحيطة بهذا الوحى فرسول الله ﷺ كان يعيش هذه البيئة منذ أول كلمة من الوحى إلى آخر كلمة منه زماناً ومكاناً ، مخاطباً بهذا الوحى أفراداً وجماعات وأحداثاً ووقائع، من سؤال وَرَدَ عليه فيحتاج إلى جوابه ، أو قضية أو واقعة تحدث فيحتاج إلى بيان حكمها أو الحديث عنها ، فيتنزل عليه الوحى ببيان جميع ذلك.

ومن جهة لغة الوحى فهو ﷺ كان سيد من نطق بالضاد، وقد كان أعلم العرب بلسانها وبجميع اللهجات التى يُنَادى بها هذا اللسان ، ومن ثم كان ﷺ أعلم الناس بالقرآن وعلومه كلها علماً تحقيقياً .

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يسيرون فى ضوء هذه القواعد وإن لم يصرحوا بها على ما سبق بيانه، فهذا عبد الله بن مسعود ـ الصحابى الفقيه ـ يقول: (والله الذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ وأين نزلت ؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه) [صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة] .

فهذا الحديث من عبد الله بن مسعود يشير إلى معرفته ببعض قواعد علوم القرآن

من مكان النزول وزمانه وسببه .

وكذلك عندما يقول رضى الله عنه : إن الحامل المتوفى عنها زوجها تنقضى عدتها بوضع الحمل لقوله تعالى : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤] .

ويستدل أن سورة الطلاق التى فيها هذه الآية نزلت بعد سورة البقرة التى فيها قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً** ﴾ [البقرة : ٢٣٤].

إنما كان يشير بذلك إلى قاعدة من قواعد علوم القرآن وهى أن النص اللاحق ينسخ النص السابق ، أى : يرفع تعلقه بالمكلَّفين .

وهكذا كانت علوم القرآن معروفة لدى بعض الصحابة رضوان الله عليهم ثم بلغوها بعد ذلك إلى التابعين، وهكذا بلغ التابعون من وراءهم من أتباع التابعين ، كل ذلك على سبيل المشافهة والرواية .

مرحلة تدوين علوم القرآن

قلنا فيما سبق أن هذه الأبحاث لم تكن فى العهود الأولى مدونة فى كتاب بل كانت فى صدر النبى ﷺ وصحابته ، وبلغها الصحابة للتابعين من بعدهم ، إلى أن جاءت حركة تدوين العلوم والتى دونت فيها بعض علوم القرآن إلا أنها لم تجمع فى مؤلف واحد بل وضعت ضمن علوم أخرى كالحديث أو التفسير، أو دونت بعض علوم القرآن على حدة مثل : أسباب النزول ألفه على بن المدينى شيخ البخارى ، وألف أبو جعفر بن الزبير الأندلسى كتاباً فى مناسبة الآيات سماه (البرهان فى ترتيب سور القرآن) وألف أبو القاسم السهيلى كتاباً فى (مبهمات القرآن) ، وألف الراغب الأصفهانى فى (غريب القرآن) وألف قتادة فى (الناسخ والمنسوخ) إلى غير ذلك

من المؤلفات التى دونت فى جزئيات من علوم القرآن .

إلى أن جاءت مرحلة جمعت فيها هذه الأبحاث متكاملة مستقلة فى مؤلفات خاصة بها سميت باسم (علوم القرآن) من أمثال الزركشى فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) ، وهو يعد كتابا وافياً فى مباحث علوم القرآن من أولها إلى آخرها إلا أنه يحتاج إلى تحقيق فى الروايات وأقوال العلماء .

ثم ألف الحافظ السيوطى كتاباً جليلاً حافلاً فى علوم القرآن أسماه (الإتقان) وقد جعله مقدمة لتفسيره الكبير الذى شرع فيه ، الجامع بين الرواية والدراية المسمى (مجمع البحرين ومطلع البدرين) .

وهو فى كتابه هذا .. لم يدع شاردة ولا واردة إلا اطلع عليها ، فلا عجب أن جاء كتابه كالفهرس لعلوم القرآن .

ومن محاسن (الإتقان) أنه يذكر فى مقدمة كل نوع من أنواعه الكتب التى ألفت مستقلة فى هذا النوع ، ثم يأخذ فى ذكر نقول ونماذج من هذه الكتب، وفى هذه النقول روايات صحيحة وجيدة ، وفيها روايات زائفة مدسوسة كان الأولى أن ينبه عليها أو ينزه كتابه عن ذكرها .

وبالجملة : فالكتاب على نفاسته يحتاج إلى التحقيق والتعليق حتى يسلم من هذه العيوب المعدودة ، وكفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه .

ثم توالت حركة التأليف فى عصر النهضة الحديثة ، فقد اتجه علماء الشريعة وعلماء القرآن والمفكرون اتجاهاً سديداً فى معالجة الموضوعات المتعلقة بعلوم القرآن بأسلوب سهل يلائم العصر الذى نعيش فيه ، والبيئة المحيطة بنا .

من هذه الكتابات .. إعجاز القرآن للأديب المسلم مصطفى صادق الرافعى، وكتابى التصوير الفنى فى القرآن ومشاهد القيامة فى القرآن للأستاذ سيد قطب،

وترجمة القرآن الكريم لشيخ الأزهر الجليل محمد مصطفى المراغى، وكذلك ترجمة القرآن للأستاذ فريد وجدى، وألف الأستاذ محمد على سلامة (منهج الفرقان فى علوم القرآن) تناول فيه مباحث كانت مقررة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف، وتلاه أستاذنا الجليل عبد العظيم الزرقانى فألف كتابه (مناهل العرفان فى علوم القرآن) وغيرها من أمثال (علوم القرآن) للأستاذ صبحى الصالح ، و(مباحث فى علوم القرآن للأستاذ مناع القطان، (واللآلى الحسان فى علوم القرآن) للدكتور موسى شاهين، (والمدخل لدراسة القرآن الكريم) للدكتور محمد أبو شهبة، ولا يزال أساتذة التفسير وعلماء القرآن يكتبون البحوث القيمة المتعلقة بالقرآن وعلومه .

خامسا تسمية العلم

اصطلح العلماء على تسمية هذا العلم (علوم القرآن) ليكون اسماً لهذا العلم جامعاً لمسائله ، مميزاً له عن غيره .

سادسا استمداده

يستمد علوم القرآن من العلوم كافة نقلية وعقلية ، ومن علوم اللغة العربية كافة.

* أما استمداده من العلوم العقلية فلتوقف ثبوت القرآنية على معرفة الله عز وجل ومعرفة صدق رسوله المبلغ عن الله عز وجل ، ومعرفة صدق الرسول ﷺ متوقفة على ثبوت المعجزة ، ودلالة المعجزة على صدق الرسول تتوقف على امتناع تأثير غير القدرة القديمة فيها ، وهذا كله مبين فى علم العقائد .

* وأما استمداده من العلوم النقلية – كاستمداده من أصول الحديث وبعض

أصول الفقه والقراءات القرآنية وغيرها ، وذلك مثل النسخ مثلا المتوقف ثبوته على النقل ، وأسباب النزول ومكانه وزمانه - فلأن ذلك لا يقال فيه إلا بالنقل عمن حضروا مهابط الوحى .

* وأما استمداده من العلوم العربية فلأن الأدلة الكلية فى القرآن الكريم والاستدلال بها يتوقف على معرفة اللغة العربية من حيث العموم والخصوص ، والإطلاق والتقييد ، والمنطوق والمفهوم ، وغيرها من المباحث اللغوية التى لها أثر فى فقه القرآن وعلومه .



حكم دراسة علوم القرآن

دراسة علوم القرآن أمر ضرورى - كما سبق - لفهم القرآن الكريم وفقه معناه، وهذه الدراسة من فروض الكفاية التى تخاطب بها الأمة فى مجموعها، فإذا قام بها من تحصل بقيامه بها الكفاية سقط الإثم عن الباقين، وإلا أثم الناس جميعاً .

وأما بالنسبة لمن يتصدى لتفسير القرآن الكريم بالفعل فإن إتقان هذا العلم يعد بالنسبة له من الواجبات العينية لتوقف تفسير القرآن على تفهم مباحثه .

وقد يكون بعض فروع هذا العلم فرض عين على كل قارئ للقرآن كعلم التجويد[1] لقوله تعالى: ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ [المزمل:٣] .

١- المتعين من هذا العلم هو ما لا تصح القراءة إلا به ، من ضبط التشكيل ونطق الحروف وغير ذلك مما يؤدى الجهل به إلى تغيير ألفاظ القرآن أو تغيير معانيها ، أما بقية تفاصيل هذا العلم من الغنة والمد والتفخيم والتدقيق وغيرها فقد اختلف العلماء فى تأثيم من يجهلها من قارئ القرآن الكريم (انظر شرح الجزرية ٢١ ، الإتقان : ١٣٢/١ ، البرهان للقمحاوى ص ٦) .

ثامنا فضل علوم القرآن

لا يخفى أن شرف العلوم بشرف موضوعها ، ولما كان موضوع هذا العلم هو القرآن الكريم كان خير ما يشتغل به من العلوم، فهو الأساس الذى يتمكن به المفسر من حسن الفهم عن الله عز وجل ويرد به عن القرآن مطاعن الشانئين والمبطلين.

تاسعا نسبة علوم القرآن إلى غيرها من العلوم

نسبة علوم القرآن إلى غيرها من العلوم التى لا تبحث فى القرآن الكريم هى التباين، حيث إن علوم القرآن علم مستقل بذاته نشأ للدفاع عن القرآن الكريم وتاريخه ولحسن تفهم القرآن، ولا يغنى غيره عنه فى فهم القرآن الكريم.

عاشرا الخلاصة

القرآن فى اللغة : مصدر قرأ ، مرادف للقراءة

وفى الإصطلاح : كلام الله المنزل على محمد ﷺ المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه.

* الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى :

القرآن الكريم	الحديث القدسي	الحديث النبوي
* وحى من الله لفظا ومعنى.	* وحى بالمعنى دون اللفظ على الراجح .	* ما نسب إليه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.
* وقع به التحدى والإعجاز.	* لم يقع .	
* لا ينسب إلا إلى الله تعالى .	* قد يروى مضافاً إلى الله أو مضافاً إلى الرسول ﷺ	* لا يروى إلا مضافاً إلى رسول الله ﷺ .
* منقول بالتواتر فهو قطعى الثبوت .	* أغلبه أخبار آحاد فهى ظنية الثبوت	
* متعبد بتلاوته وتتعين به القراءة فى الصلاة ويثيب الله عليه بكل حرف عشر حسنات .	* يثيب الله عليه ثواباً عاماً ولا يجزئ فى الصلاة .	
* لا تجوز روايته بالمعنى .	* تجوز روايته بالمعنى للعارف الضابط	* تجوز روايته بالمعنى .

مادة علوم القرآن : علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيثيات مخصوصة كنزوله وجمعه وترتيبه .

* الفائدة من دراسة علوم القرآن :

١ – حسن تفهم القرآن الكريم والانتفاع به علماً وعملاً .

٢ – رد مطاعن الطاعنين على القرآن وحقيقته .

٣ – الإلمام بتاريخ القرآن الكريم، ومدى عناية الأمة به والتحقق من مصداق قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر: ٩] .

٤ – الوقوف على حجية القرآن وإعجازه وكونه من عند الله .

*** مباحث علوم القرآن فى جملتها ترجع إلى مصادر ثلاثة :**

١- الوحى من قبل الله تعالى .

٢- البيئة المحيطة بذلك الوحى من الزمان والمكان والأشخاص والوقائع .

٣- لغة الوحى التى هى اللسان العربى المبين .

*** مرحلة تدوين علوم القرآن :**

١- كانت علوم القرآن مستقرة وثابتة فى صدر النبى ﷺ وأصحابه وإن لم يصرحوا بها ثم بلغها الصحابة للتابعين .

٢- ثم جاءت حركة تدوين العلوم والتى دونت فيها بعض علوم القرآن ضمن علوم أخرى كالتفسير أو الحديث أو دون بعضها على حدة .

٣- ثم جاءت مرحلة جمعت فيها هذه الأبحاث متكاملة مستقلة فى مؤلفات خاصة بها .

٤- فى عصر النهضة الحديثة اتجه إلى معالجة موضوعات علوم القرآن بأسلوب سهل يلائم العصر .

*** حكمه :** من فروض الكفاية، أما بالنسبة لمن يتصدى لتفسير القرآن الكريم فهو من الواجبات العينية فى حقه، وقد تكون بعض مباحث هذا العلم من فروض الأعيان بالنسبة للعامة كأحكام التلاوة.

*** فضل علوم القرآن** هو خير ما يشتغل به من العلوم لشرف موضوعه وهو القرآن الكريم.

*** علوم القرآن من العلوم المستقلة بذاتها** لا يغنى غيرها عنها فى فهم القرآن.

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص ٥ - ٣٣ .

٢- مباحث علوم القرآن لمناع القطان ص ٨ : ٢١ .

٣- مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص ٧ : ٢١ ، ١٩ : ١٢٦



أسئلة التقويم الذاتي

س١ بين تعريف العلم فى اللغة وفى الاصطلاح ، وتعريف القرآن فى اللغة وعند علماء الشريعة الإسلامية .

س٢ اذكر تعريف علوم القرآن لقباً .

س٣ وضح الفوائد من دراسة علوم القرآن .

س٤ مباحث علوم القرآن ترجع فى جملتها إلى مصادر ثلاثة ... ما هى ؟

س٥ وضح المراحل التى مر بها تدوين علوم القرآن .

س٦ هات أمثلة لمؤلفات خاصة جمعت فيها أبحاث علوم القرآن قديماً .

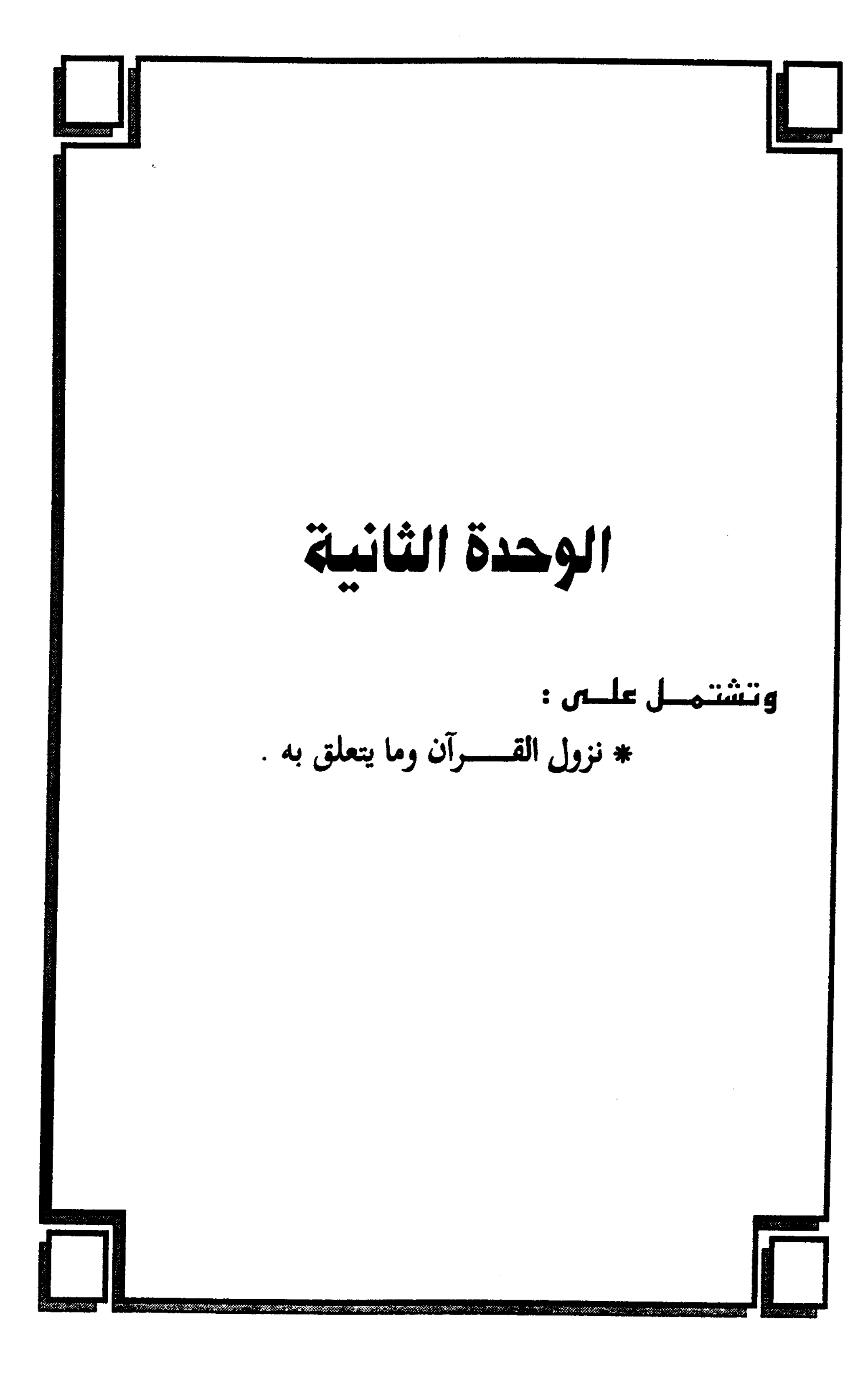
س٧ هات أمثلة لكتابات حديثة فى معالجة علوم القرآن بأسلوب سهل .

س٨ هل تقتصر علوم القرآن فى استمدادها على علم واحد ؟ وضح .

س٩ ما حكم دراسة علوم القرآن ؟

س١٠ وضح فضل علوم القرآن بالنسبة لغيره من العلوم ؟

س١١ هل يمكن أن تغنى العلوم الأخرى عن علوم القرآن فى فهم القرآن الكريم ؟



الوحدة الثانية

وتشتمـــل علـــى :

* نزول القـــــرآن وما يتعلق به .

الوحدة الثانية

نزول القرآن وما يتعلق به

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً علي معرفة ما يلي:

[١] معني نزول القرآن الكريم .

[٢] التنزلات التي مر بها النص القرآني .

[٣] الحكم والأسرار في تنجيم القرآن الكريم .

[٤] حقيقة الوحي والرد علي الشبهات المثارة حوله .

[٥] كيفية الوحي إلي رسول الله ﷺ .

[٧] أول ما نزل من القرآن علي الإطلاق، وآخر ما نزل منه علي الإطلاق

[٨] المراد بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

محتويات الوحدة الثانية

١- معني نزول القرآن .

٢- تنزلات القرآن .

٣- كيفية إنزال القرآن على النبى ﷺ .

٤- الحكم والأسرار في تنجيم القرآن الكريم .

٥- الوحى .

٦- أول ما نزل وآخر ما نزل .

٧- نزول القرآن على سبعة أحرف .

المقدمة

مبحث نزول القرآن مبحث مهم في دراسة علوم القرآن بل هو أهم مباحثه ، وذلك لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن الكريم ، وأنه كلام الله ، وأساس للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق، ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعد في دراسة علوم القرآن فلا جرم أن يتصدرها جمعاء .

أولا معني نزول القرآن

تعريف معنى النزول فى اللغة :

النزول مصدر نزل ومعناه لغة : الهبوط من علو إلى سفل ، ومنه قوله تعالى : **﴿ أنزل من السماء ماء ﴾** [الرعد:١٧] ، ويطلق أيضاً على الإيواء والحلول فى المكان ، ومنه نزل الأمير المدينة أى آوى إليها وحل بها .

معنى نزول القرآن اصطلاحاً :

إذا تبين معنى النزول فى اللغة وأنه انحدار من علو إلى سفل فإن هذا المعنى على الجملة هو المراد من نزول القرآن أيضاً ولكن على نحو يليق بالقرآن الكريم ، ونفوض علم كيفية ذلك إلى الله عز وجل ، وقد ذهب بعض أهل التأويل إلى تأويل النزول على معنى الخلق أو الإعلام وكل ذلك موضع نظر.

ما الذى نزل به جبريل على محمد ﷺ ؟

القرآن الكريم كلام الله تعالى لفظا ومعنى، نزل به رسول الله من الملائكة وهو جبريل إلى رسول الله من البشر وهو محمد ﷺ فسمعه جبريل من الله عز وجل، وسمعه محمد ﷺ من جبريل ، وليس لأحد منهما فيه إلا التبليغ والأداء ،كما أن المعلمين له فى هذا الزمان والتالين له فى الصلاة أو خارجها ليس لهم إلا ذلك ، فالكلام ينسب إلى من قاله مبتدئا منشئا لا لمن أداه راويا ومبلغا .

وإيحاء الله بالقرآن إلى جبريل كتحميل الملك أمينه كتاباً يوصله إلى من أراد أن يصل إليه الكتاب من غير تدخل من الأمين فى الكتاب .

فالقرآن الكريم من الله بدأ فهو المتكلم به، وإلى الله يعود يوم أن يسري عليه

فى ليلة فلا يبقى منه فى المصاحف حرف ولا فى الصدور آية!

وأما قوله تعالى ﴿ **إنه لقول رسول كريم**﴾ وهو آية قد ذكرت مرتين فى كتاب الله عز وجل مرة فى سورة الحاقة فى قوله تعالى ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون**﴾ [سورة الحاقة : ٤٠ـ ٤٢] والمقصود بالرسول فيها هو محمد ﷺ ، ومرة فى سورة التكوير فى قوله تعالى ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين** ﴾ [سورة التكوير: ١٩ـ ٢١] والمقصود بالرسول فيها هو جبريل عليه السلام ، فأضافه إلى الرسول من البشر تارة ، وإلى الرسول من الملائكة تارة باسم الرسول فى كلا الموضعين ، ولم يقل إنه لقول ملك ولا قول نبى لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ له من غيره لا منشئ له من عنده، فالإضافة فى الموضعين إضافة بلاغ وأداء وليست إضافة إنشاء وابتداء .

شبهة وجوابها :

وهنا شبهة قد أثارها بعض أهل الزيغ يزعمون أن جبريل كان ينزل على الرسول ﷺ بمعانى القرآن والرسول ﷺ يعبر عنها بلغة العرب، وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحى إليه بالمعنى فقط!!

وقد استند هؤلاء المبطلون فى هذا الزعم الفاسد إلى قوله تعالى: ﴿ **نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** ﴾ [الشعراء:١٩٣ـ ١٩٥] .

ووجه الدلالة عندهم أنه قد ذكر فى هذه الآيات صراحة أن الروح الأمين الذى هو جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على قلب النبى ﷺ ، فدل هذا على أن الذى نزل به عليه هو المعنى دون اللفظ !!.كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا!

والحق الذى لا معدل عنه أن الذى نزل به جبريل وألقاه إلى النبى ﷺ هو اللفظ والمعنى معاً، ولا عبرة بهذا الزعم الفاسد الأثيم الذى يصادم صريح الكتاب

والسنة والإجماع، والذى يؤول فى النهاية إلى إنكار أن يكون القرآن كلام الله!!

ولا يخفى أن استدلالهم على هذه الفرية فاسد من وجهين :

١- تدل آيات كثيرة من القرآن على أن جبريل عليه السلام تلقى القرآن بلفظه ومعناه وأوحاه إلى النبى ﷺ بلفظه ومعناه، مثل قوله تعالى : ﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾ [يوسف: ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ [التوبة : ٦] وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللفظ لمحمدﷺ ؟! إن الحق الذى لا معدل عنه أنه ليس لجبريل فى هذا القرآن إلا حكايته للرسولﷺ وإيحاءه إليه، وليس للرسول ﷺ فى هذا القرآن سوى وعيه ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ثم تطبيقه وتنفيذه.

٢- ليس هناك مانع من العقل يدل على امتناع أن يكون فى قدرة الملك إثبات الألفاظ فى قلب النبى ﷺ .

وفضلا عن ذلك فإن القائل بهذه الشبهة يلزمه مفاسد عظيمة منها : مخالفته لصريح القرآن والسنة واجماع الأمة من كون القرآن معجزاً بلفظه، ومنها : أنه لا يكون هناك تعبد بتلاوة القرآن وغير ذلك ، لذا كان هذا الزعم ساقطاً عن الاعتبار.

استطراد مع هذه الشبهة وجوابها :

ولعل بعضهم يتساءل فيقول: لماذا لا يكون إنزال جبريل بالقرآن كما يلقن أحدنا شخصا آخر ألفاظاً لها مدلولها ومعانيها ثم يأمره بتبليغها إلى ثالث، فيقوم ذلك الشخص بتبليغ ذلك المدلول بعبارة من عنده من غير أن ينسب إلى تفريط أو تدليس؟

والجواب أن المرسل إذا أعطى رسوله كتابا وأمره أن يقرأه على ثالث فليس له أن يبدل منه حرفا واحدا ، وقد نصر الحافظ السيوطى رحمه الله الحق وكسر الباطل فى

هذه الشبهة، وذلك يتمثل فيما نقل من كلام إمام الحرمين الجويني ، وتعقيبه عليه بما يقصده وذلك إذ يقول رحمه الله: قال الجويني: كلام الله المنزل قسمان :

ـ قسم قال الله لجبريل قل للنبى الذى أنت مرسل إليه : إن الله يقول : افعل كذا وكذا وأمر بكذا وكذا ، ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبى وقال له ما قال ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة ، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك : اجتهد فى الخدمة واجمع جندك للقتال ، فإن قال الرسول يقول لك الملك : لا تتهاون فى خدمتى ولا تترك الجند يتفرق وحثهم على المقاتلة ، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير فى أداء الرسالة .

ـ وقسم آخر قال الله لجبريل : اقرأ على النبى هذا الكتاب، فنزل جبريل به من الله من غير تغيير كما يكتب الملك كتابا ويسلمه إلى أمين ويقول : اقرأه على فلان فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً . أ. هـ . كلام الجويني .

فالقسم الثاني هو القرآن والقسم الأول هو السنة، وقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن وقد تبين بما ذكر حكمة جواز رواية السنة بالمعنى للعارف الضابط وعدم جواز رواية القرآن بالمعنى ، وذلك لأن السنة أداها جبريل بالمعنى ، وأما القرآن فإنه أداه باللفظ ، وقد كان ذلك من تيسير الله على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحى به ، وقسم يروونه بالمعنى ، ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ذلك عليهم ، ولو جعل كله مما يروى بالمعنى لم يؤمن فيه التبديل والتحريف .

شبهة أخرى وجوابها :

إننا نقرأ فى القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [غافر:٢٧] ، وقوله تعالى ﴿ **وقال فرعون ياهامان**

ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب﴾ [غافر: ٣٦] ، فكيف يسمى ما يحكيه الله تعالى عن الأمم السابقة قرآنا ومن المعروف أن كلام الله قديم ؟

والجواب على هذه الشبهة أن الكلام يطلق على اللفظ والمعنى، ويطلق على كل منهما وحده، وناقله عمن تكلم به من غير تحريف لمعناه ولا تغيير لحروفه ونظمه مخبر مبلغ فقط ، والكلام إنما هو لمن بدأه ، أما إن غير حروفه ونظمه مع المحافظة على معناه فينسب إليه اللفظ فقط ، وينسب من جهة معناه إلى من تكلم به ابتداء ، ومن ذلك ما أخبر الله به عن الأمم الماضية كقوله تعالى: ﴿ **وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ وقوله: ﴿ **وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب** ﴾ فهاتان تسميان قرآنا وتنسبان إلى الله كلاماً له باعتبار حروفهما ونظمهما ؛ لأنهما من الله لا من كلام موسى وفرعون، لأن النظم والحروف ليسا منهما ، وتنسبان إلى موسى وفرعون باعتبار المعنى ، فإنه كان واقعاً منهما، وهذا وذاك قد علمهما الله في الأزل ، وأمر بكتابتهما في اللوح المحفوظ ، ثم وقع القول من موسى وفرعون بلغتهما طبق ما كان في اللوح المحفوظ ، ثم تكلم الله بذلك بحروف أخرى ونظم آخر في زمن نبينا محمد ﷺ فنسب إلى كل منهما باعتبار، وأما وصف كلام الله بالقدم فلم يعرف عن الصحابة رضي الله عنهم ولا عن أئمة السلف رحمهم الله ، وإنما كان أهل السنة يقولون أيام المحنة : كلام الله غير مخلوق ، ويقول مخالفوهم : كلام الله مخلوق، فوصف كلام الله بأنه قديم اصطلاح حادث ، ولو جرينا عليه قلنا كلام الله قديم النوع حادث الآحاد ، لأن الله تعالى لم يزل متكلما ، ولايزال متكلماً بما يشاء ، وحتى أنه ليتكلم يوم القيامة مع المؤمنين والكافرين وغيرهم بما يشاء ، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان... » الحديث مع أحاديث أخرى في الموضوع .

ثانياً تنــزلات القــرآن

شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات :

١- التنزل الأول إلى اللوح المحفوظ، ودليله قول الله سبحانه : ﴿ **بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ** ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمه إلا الله، فوجب الإيمان به مع تفويض علم كيفيته إلى الله عز وجل .

٢- التنزل الثانى للقرآن: كان التنزل الثانى إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، والدليل قوله تعالى فى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ [الدخان : ٣] وقوله تعالى: ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ [القدر: ١] وقوله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

فقد دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة توصف بأنها مباركة أخذاً من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر آخذاً من آية القدر، وهى من ليالى شهر رمضان أخذاً من آية البقرة، وإنما قلنا ذلك جمعاً بين هذه النصوص فى العمل بها ، ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبى ﷺ مفرقًا لا فى ليلة واحدة ، بل على مدى سنين عديدة ، فيتعين أن يكون هذا النزول الذى نوهت به الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النزول على النبى ﷺ ، وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول وأنه ببيت العزة من السماء الدنيا .

فعن ابن عباس أنه قال : (فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ) .

وعن ابن عباس أيضاً قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى أثر بعض .

وقد ذكر الحافظ السيوطى فى كتابه الإتقان روايات عن ابن عباس بهذا المعنى وقال أسانيدها كلها صحيحة ، وهذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأى والاجتهاد بل له حكم المرفوع .

وإذا كانت هذه الآيات لا تنافى بينها فهى لا تتنافى فى الواقع الثابت من أنه نزل على النبى ﷺ فى غير شهر رمضان وليلة القدر ، لأن ذلك فى نزوله إلى السماء الدنيا كما علمت ، وهذا فى نزوله على النبى ﷺ منجماً بحسب الوقائع والأحوال وجواب الأسئلة والأمثال فى عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين سنة ، أو خمس وعشرين سنة على الخلاف فى مدة إقامته فى مكة بعد البعثة ، وهذا البيان الذى ذكرناه فى المراد من الآيات المذكورة وطرق الجمع بينها هو الصحيح المعتمد حتى حكى بعضهم الإجماع عليه .

وهناك أقوال أخرى ذكرها الحافظ السيوطى وغيره أعرضنا عن ذكرها لكونها بمعزل عن التحقيق، وهى محجوجة بالأدلة التى سقناها بين يديك تأييداً للقول الأول

٣- التنزل الثالث للقرآن وهو المرحلة الأخيرة التى منها شع النور على العالم، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان النزول بواسطة أمين الوحى جبريل يهبط به على قلب النبى ﷺ، ﴿ **نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربى مبين** ﴾ [الشعراء ١٩٣-١٩٥] .

الحكمة فى تعدد النزول وأماكنه إجمالا وتنجيما :[١]

والحكمة فى إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا على ما ذكره الحافظ السيوطى نقلاً عن أبى شامة تفخيم أمره وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، وبإنزاله مرتين، مرة

١- يقال نجم الشئ أى قسطه أقساطاً وتنجيم القرآن هو تنزيله مجزءاً مفرقاً على قلب النبى ﷺ .

جملة ومرة مفرقاً بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنزل جملة مرة واحدة .

قال الزرقاني في مناهل العرفان : وفي تعدد النزول وأماكنه مرة في اللوح ، وأخرى في بيت العزة ، وثالثة على قلب النبي ﷺ : في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن وزيادة للإيمان به ، وباعث على الثقة فيه ، لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة وصحت له وجودات كثيرة ، كان ذلك أنفى للريب عنه ، وأدعى إلى تأكيد ثبوته ، وأدنى إلى وفرة الإيقان به مما لو سجل في سجل واحد ، أو له وجود واحد [1] .

ثالثاً كيفية إنزال القرآن على النبي ﷺ

من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن نزول القرآن على محمد ﷺ لم يكن جملة واحدة بل كان منجماً متفرقاً على مدى مدة متطاولة من بعثته ﷺ إلى قرب وفاته ، ويأتلف البرهان على هذا المعلوم وهو ما قد أعطاه علمه الضروري من بينات ثلاث :

١ – مشاهدة الواقع الذى لا يسع أحد مدافعته لا من أهل الإسلام ولا من غيرهم، ومن ثم لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام فضلا عن أوليائه على إنكار شئ من أمر هذا الواقع .

أما أولياء الإسلام فظاهر، وأما أعداؤه فهم وإن أنكروا أصل نزول القرآن من قبل الله عليه بالكلية لم ينكروا ادعاءه ﷺ هذا النزول، وأن هذا الادعاء استغرق من حياته مدة طويلة منذ كان على رأس الأربعين إلى قرابة وفاته، وأنه كان يتكرر بالتالى مرات كثيرة، يقول فى كل واحدة منها: إنه قد تنزل عليه فى هذه المرة كذا من القرآن.

---

١ – مناهل العرفان : ٤٨ .

٢- التواتر بكل قسميه اللفظى والمعنوى

أما اللفظى - فيتمثل فى النصوص العديدة من القرآن المتواتر والذى يفيد كل واحد منها على حدته علاج حادثة بعينها وقعت فى وقت مخصوص فضلا عن تصريح بعض النصوص من الذكر الحكيم بتنجيمه وتفريقه كقوله تعالى فى آخر سورة الاسراء ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ...** ﴾ [الإسراء: ١٠٦] .

وأما التواتر المعنوى فيتمثل فى نصوص السنة المتكاثرة المتحدثة عن أسباب النزول، فإنها وإن لم تتواتر ألفاظها فإنها تجمع كلها على قدر مشترك هو تنجيم القرآن الكريم .

٣- التنجيم هو مقتضى الحكمة حسبما أفصحت عن ذلك آية الاسراء ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ، وقوله تعالى : ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا** ﴾ [الفرقان : ٣٢] ، وليس يجوز فى عقل عاقل أن يعدل الله عن مقتضى الحكمة إلى ما يخالف مقتضاها .



رابعاً الحكم والأسرار في تنجيم القرآن الكريم

لتنجيم القرآن الكريم جملة من الحكم والأسرار نشير إلى بعضها فيما يلى:

الحكمة الأولى : تثبيت قلب النبى ﷺ وتقويته .

لقد تولى الله بنفسه بيان هذه الحكمة فقال تعالى: ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾ [الفرقان:٣٢] يعنون : كما أنزل على من قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله: ﴿ **كذلك** ﴾ أى أنزلناه مفرقاً ﴿ **لنثبت به فؤادك** ﴾ أى لنقوى به قلبك ، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب ، وأشد

عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان النبى ﷺ أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل ، كما ورد فى الحديث المتفق عليه عن ابن عباس رضى الله عنهما : (كان رسول ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة) .

ولقد اقتضت سنة الله تعالى فى العادة أن يلاقى النبى عليه الصلاة والسلام أذى كثيراً من قومه فكان لاتصال الوحى به إذ ذاك وتتابع نزول الآيات عليه تشد من أزره وتحمله على الصبر والمصابرة ، وتعده بالنصر والتأييد فى النهاية – كان لذلك أبلغ الأثر فى مواساته ، وتخفيف تلك الشدة عنه، وإزاحة معانى الغربة والضعف عن نفسه، فمن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ [ق : ٣٩ ، ٤٠] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ [الحجر ٩٤ – ٩٩] .

فلو أن القرآن نزل كله عليه جملة واحدة، لكان لانقطاع الوحى عنه بعد ذلك أثر كبير فى استشعاره الوحشة والغربة ، ومهما يكن رسول الله ﷺ قد أوتى من العزيمة والصبر فإن لبشريته أيضاً أثراً بيناً فى حياته ما دام أنه بشر ، وقد كان لديه ﷺ من قوة الإيمان بالله ما يكفى لأن يحمله على تبليغ دعوة ربه ، والجهاد فى سبيلها ، ولكنه على ذلك لم يكن به غناء عن المواساة والمعونة والتسلية إذ يأتيه كل ذلك من ربه المرة تلو المرة يعيده إلى الأمن والانشراح والأنس والرضى ، وهذا هو ما عبر عنه البيان

الإلهى بالتثبيت في قوله : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ [الفرقان : ٣٢] .

الحكمة الثانية : التدرج فى تربية الأمة الناشئة علماً وعملاً

وينضوى تحت هذه الحكمة تيسير حفظ القرآن على الأمة المسلمة، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه ، فاقتضت حكمته العليا أن ينزله إليهم مفرقاً ليسهل عليهم حفظه ويتهيأ لهم استظهاره ، وليسهل فهمه كذلك

وينضوى تحتها كذلك تيسير تطبيقه والعمل به وتحوله إلى عمل محسوس يسير فى دنيا الناس، فإن مما لا ريب فيه أن القرآن قد احتوى على متن الفقه الإسلامى كله ـ أى على عامة أحكامه فى الجملة ـ سواء ما يتعلق بالعبادات أو المعاملات المدنية أو الأحوال الشخصية أو العقوبات أو النظم الدستورية والمالية ، وكان العرب قبل الإسلام متفلتين عن كل قيد، لا يخضعون لنظام فكان من العسير عليهم أن يتقبلوا أحكام القرآن كلها فى طفرة مفاجئة، من أجل ذلك أخذهم القرآن بالوسيلة التربوية التى لابد منها ، وهى وسيلة التدرج فى التشريع، فنزلت أولاً الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها ، حتى إذا آمن الناس وثابوا إلى عقيدة التوحيد ، نزلت آيات الحلال والحرام، وعامة الأحكام فى مهل وتدرج ، وفى ذلك يروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل شئ : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا) .

الحكمة الثالثة : مسايرة الحوادث والطوارئ فى تجددها وتفرقها .

فكلما جد منهم جديد تنزل من القرآن ما يناسبه ، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه، وتحمل هذه الحكمة فى طيها إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى رسول الله ﷺ سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته

كما فى قوله : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ [الاسراء : ٨٥] أم كانت لغرض معرفة حكم الله فى الحادثة ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ [البقرة : ٢١٩] ومما لا ريب فيه أن تلكم الأسئلة كانت ترفع إلى النبى ﷺ فى أوقات مختلفة ولابد أن الجواب عليها كذلك فى أوقات مختلفة .

الحكمة الرابعة : الإرشاد إلى مصدر القرآن ، وأنه كلام الله وحده.

وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه ، وبيان ذلك أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره ، فإذا هو محكم السرد ، متين الأسلوب ، قوى الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض فى سوره وآياته وجمله ، يجرى دم الإعجاز فيه من أوله إلى آخره ، وهنا نتساءل كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز ؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش ؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة بل تنزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع والحوادث فى أكثر من عشرين عاماً ؟ والجواب أننا نلمح هنا سراً من أسرار الإعجاز ، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية ، ونقرأ دليلا ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان، نزل منجما ولكنه تم مترابطاً محكما ، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب، ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً ولكن تكامل انسجامه بداية وختاماً !!. ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [هود: ١] .

خامسا الوحي

كل ما قدمناه لك عزيزى الدارس فى نزول القرآن الكريم لا يسلمه ولا يقبله إلا من آمن بالوحى وأساليبه ، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى ، واستمداد الإنسان لمعارفه عن الله تعالى بواسطة الملك ، على غير الطريقة المعتادة بين البشر .

حقيقة الوحى :

أصل الوحى فى اللغة : إعلام بخفاء .

ـ ومنه الإلهام الفطرى للإنسان وهو المشار إليه فى قوله تعالى﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه** ﴾ [القصص : ٧] وقوله تعالى: ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي** ﴾ [المائدة : ١١١] .

ـ ومنه الإلهام الغريزى للحيوان وهو المشار إليه فى قوله تعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً** ﴾ [النحل: ٦٨] .

ـ ومنه الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كما فى قوله تعالى عن عبده زكريا ﴿**فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً** ﴾ [مريم : ١١]

وقد يطلق الوحى على ما يوسوس به الشيطان ويزينه من خواطر الشر للإنسان، كما قال تعالى: ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

أما الوحى فى الاصطلاح فهو : إعلام الله أنبياءه ما شاء أن يعلمهم به من ألوان العلم، ويكون على أنواع شتى:

أنواع الوحى :

الوحى أربعة أنواع تتمثل فيما يلى :

– منها ما يكون مكالمة بين العبد وربه كما كلم الله موسى تكليما

قال تعالى: ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾ [النساء: ١٦٤] .

– ومنها ما يكون إلهاماً يقذفه الله فى قلب مصطفاه على وجه من العلم

الضرورى لا يستطيع له دفعاً ولا يجد فيه شكاً، ومنه قوله ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » [رواه أبو نعيم فى الحلية] .

– ومنها ما يكون مناماً صادقاً يجئ فى تحققه ووقوعه كما يجيء فلق الصبح فى تبلجه وسطوعه ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح [متفق عليه]، ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء وحى يجب اتباعه ما جاء فى قصة إبراهيم عليه السلام من رؤيا ذبحه ولده اسماعيل، ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما هم إبراهيم عليه السلام بذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء .

قال تعالى : **﴿ فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين﴾**

[الصافات:١٠٢ـ ١٠٥] .

– ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام، وهو الوحى الجلى، وهو أشهر أنواع الوحى وأكثرها، وهو المقصود بدراسة الوحى فى مادة علوم القرآن لأن وحى القرآن كله من هذا القبيل.

قال تعالى فى الإشارة إلى أنواع الوحى : **﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾** [الشورى: ٥١] .

والآن عزيزى الدارس: تنبه بفكر موضوعى مجرد، وعقل علمى متجدد ، ما هو هذا الوحى الذى جاء بهذا القرآن فوضعه بين يدى محمد ﷺ ؟

أهو نوع من الإلهام النفسى؟ أم هو حركة فكرية داخلية ؟ أم هو إشراق روحى جاءه عن طريق الكشف التدريجى ؟ أم هو ضرب من الصرع والجنون كان ينتابه كما قد يزعم ذلك المبطلون والخراصون ؟ أم هو استقبال لحقيقة ذاتية مستقلة عن كيانه يتلقاها من خارج فكره وشعوره ؟

وللإجابة على هذه التساؤلات فإننا نرجع بك عزيزى الدارس إلى حقائق التاريخ الثابتة الواصلة إلينا عن طريق النقل الصحيح، وإذا رجعنا نسأل حقائق التاريخ فإنها تضعنا أمام حديث قصة بدء الوحى الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما والحديث طويل ، وحسبنا أن نجتزئ منه فى هذا المقام ما يكشف لنا سبيلاً صحيحة للإجابة على هذه الأسئلة .

ففى الحديث أن الملك فاجأه فى غار حراء يتعبد ، فقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، فأخذه الملك فغطه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، وتكرر هذا من الملك والرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، وفى المرة الثالثة قال الملك : **﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾** [العلق : ١-٥] فكان ذلك أول ما نزل من القرآن ، وفى الحديث أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام نزل عقب ذلك من الغار عائدا إلى البيت وإن فؤاده ليرتجف خوفاً ، وفى الحديث أيضاً أن خديجة ذهبت به إلى ورقة ، وأن ورقة أخبره إن هذا هو الناموس (أى الوحى) الذى نزل على موسى وطمأنه أنه ليس شراً .

وفى الحديث أيضاً أن الوحى قد انقطع بعد ذلك مدة طويلة من الزمن وأن الضيق والألم قد استبدا به ﷺ من ذلك ، خوفاً من أن يكون قد أساء فتحول عنه الوحى لذلك، ثم إنه رأى ذلك الملك مرة أخرى وقد ملأ مظهره ما بين السماء

والأرض قال : فرعبت منه ورجعت فقلت : زملونى زملونى .. فنزل عليه قوله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر وثيابك فطهر، والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : ١-٥] ثم تتابع الوحى بعد ذلك .

هذه الحقائق الواردة فى هذا الحديث لا يمكن تجاهلها لأمرين اثنين :

١- إن ظاهرة الوحى التى يتحدث الناس عنها وصلت إلينا عن طريق هذا الحديث، فإذا ضربت صفحا عنه فاضرب صفحا عن هذه الكلمة نفسها إذ لا معنى للبحث فى شئ غير موجود ولا واقع .

٢- الحديث ليس من قبيل الاستنتاجات النظرية أو التاريخية بل هو خبر نقل بواسطة سند متصل من الرواة العدول الضابطين .

فإذا فرضنا - عزيزى الطالب - أن الوحى ليس إلا شعوراً نفسياً أو إشراقاً روحياً أو إلهاماً داخلياً ، ثم عدنا إلى هذا الحديث وجدناه يناقض هذا الفرض مناقضة صريحة صارخة .

أولاً : إنَّ شيئا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحى لا يستدعى الخوف والرعب واصفرار اللون ، وليس ثمة انسجام بين التدرج فى التفكير والتأمل من ناحية، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى ، وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين دفعات من الرعب والخوف ، وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون - كل ذلك من الانفعالات القسرية االتى لا سبيل إلى اصطناعها ، والتمثيل بها .

ولقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو فى غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه وهو يقول له (اقرأ) حتى يتبين أن ظاهرة الوحى ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هى استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها

بالنفس وداخل الذات .

وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلا فى كل مرة اقرأ ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقى الخارجى، ومبالغة فى نفى ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط .

ثم إن فيما ألهم الله به خديجة من الذهاب به عليه الصلاة السلام إلى ورقة بن نوفل ، وعرض الأمر عليه تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذى فوجئ به عليه الصلاة السلام إنما هو الوحى الإلهى الذى كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التى كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه .

أما انقطاع الوحى بعد ذلك ، وتلبثه ستة أشهر أو أكثر على الخلاف المعروف فيه ، فينطوى على مثل المعجزة الإلهية الرائعة، إذ فى ذلك أبلغ الرد على ما يفسر به محترفوا الغزو الفكرى الوحى والنبوة من أنه الإشراق النفسى المنبعث لديه من طول التأمل والتكرار ، وأنه أمر داخلى منبعث من ذاته نفسها .

لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذى رآه لأول مرة فى غار حراء مدة طويلة ، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك ، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف فى نفسه من أن يكون الله عز وجل قد قلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحى والرسالة ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه بما رحبت، وراحت تحدثه نفسه كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقى بنفسه منها، إلى أن رأى ذات يوم الملك الذى رآه فى حراء وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول : يا محمد أنت رسول الله إلى الناس، إن هذه الحالة التى مر بها رسول الله تجعل مجرد التفكير فى كون الوحى إلهاماً نفسياً ضربا من الجنون ، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات

الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هـذه الأحـوال .

وربما عاد محترفوا التشكيك يسألون لماذا كان ينزل عليه ﷺ الوحى وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملك أحد منهم سواه ؟

الجواب يكمن فى هذه القاعدة العلمية المسلمة من أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار، إذ أن وسيلة الأبصار محدودة بحد معين وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشئ معدوما إذا ابتعد عن البصر ، والأصل فى الملك أنه مخلوق لطيف لا يرى بالأبصار فى الدنيا ، فكون الصحابة لا يرونه فهذا أمر طبيعى ، أما كون رسول الله ﷺ يراه فلا عجب فى ذلك لأنه ﷺ هو الذى ينزل عليه الوحى ، وقد ميز عن غيره بخصال عديدة منها أنه يرى ما لا يرون : مثل الملائكة والجن ، ويعلم ما لا يعلمون مما أخبره الله تعالى ، وكل ذلك من الغيب الذى أطلع الله عليه رسوله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول**﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

ثم إن استمرار الوحى بعد ذلك يحمل الدلالة نفسها على حقيقة الوحى، وأنه ليس كما أراد المشككون ظاهرة نفسية محضة .

ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يلى :

١ - التمييز الواضح بين القرآن والحديث ، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً ، على حين يكتفى بأن يستودع الثانى ذاكرة أصحابه ، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به ، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام ، أما الحديث فمعناه وحى من الله عز وجل ولكن لفظه وتركيبه من عنده ﷺ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذى يتلقاه من جبريل بكلامه هو.

٢- كان النبى ﷺ يسأل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها ، وربما مر على سكوته زمن طويل حتى إذا أنزلت آية من القرآن فى شأن ذلك السؤال طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن فى شأن سؤاله .

٣- كان رسول الله ﷺ أمياً .. وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف وأم موسى حينما ألقت وليدها فى اليم وقصة فرعون ولقد كان هذا من جملة الحكم فى كونه ﷺ أمياً : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون** ﴾ [العنكبوت:٤٨] .

وكما لايمكن لأمى لا يكتب ولا يحسب أن يعرف بطريق المكاشفة حقائق تاريخية فأولى أن لايعرف حقائق علمية لم يصل العلم إلى اكتشافها إلا مؤخرا بعد اكتشافه أعقد الأجهزة وأدق المختبرات .

لقد تضمن القرآن بين دفتيه من الحقائق العلمية ما لم يكتشف بعضه إلا منذ سنين ، سواء ما كان منها فى الأنفس أو فى الآفاق، مصداق قوله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وهذه الحقائق العلمية تتضمن شهادة الرب جل وعلا أن محمدا حق، وأن الوحى حق، وأن القرآن حق، فهى بمثابة قول الله جل وعلا: صدق عبدى فيما يبلغ عنى، كما قال تعالى: ﴿ **قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ [الأنعام: ١٩] فمن ذا الذى أعلم محمدا ﷺ بهذه الحقائق والدقائق وهو النبى الأمى الذى لا يكتب ولا يحسب؟! من ياأولى الألباب؟! قال تعالى : ﴿ **قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان حليما غفورا** ﴾ [الفرقان: ٦] .

كيفية وحى الملك إلى رسول الله ﷺ :

لا تخلو كيفية وحى الملك إلى الرسول ﷺ من إحدى حالتين:

الأولى : وهى أشد أحواله عليه ـ أن يأتيه مثل صلصلة الجرس فيفصم عنه [1] وقد وعا عنه ما قال ..

الثانية : وهى أهون منها ـ أن يأتيه الملك فى صورة رجل فيكلمه ، فيعى عنه ما يقول ، وبهاتين الكيفيتين كان نزول القرآن .

فقد روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول [البخارى باب بدء الوحى] .

سادسا أول ما نزل وآخر ما نزل

أخى الدارس أختى الدارسة : هذا البحث من دراسة علوم القرآن يعتبر من المباحث الجليلة فى مجال الدراسات القرآنية إذ يتعلق به فوائد مهمة ، منها :

١- معرفة الناسخ من المنسوخ عند التعارض، وذلك فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد، وكان الحكم فى إحدى الآيات يغاير الحكم فى الأخرى .

٢- معرفة التدرج فى التشريع كمعرفة الآيات التى وردت فى شأن الخمر .

٣- معرفة تاريخ التشريع الإسلامى، كالعلم بأن الآيات الدالة على وجوب شهر

١- أى يذهب عنه .

رمضان نزلت فى مكان كذا سنة كذا مثلا .

٤- إظهار مدى عناية الأمة بالقرآن الكريم، حتى عرف فى دراسة علوم القرآن أول ما نزل وآخر ما نزل .

وهذا البحث عمدته النقل ولا طريق فيه للاجتهاد إلا بالترجيح بين الأدلة أو الجمع فيما ظاهِرْه التعارض، ثم أولية النزول وآخريته تارة تكون على الإطلاق يعنى أولية النزول على الإطلاق، وآخريته على الإطلاق، وتارة تكون بالنسبة إلى موضوع معين، وتسمى أولية مقيدة كأول ما نزل فى الخمر وآخر ما نزل فيها، وأول ما نزل فى الربا وآخر ما نزل فيه، وهكذا.

وكلامنا عزيزى الدارس هنا عن الأولية المطلقة والآخرية المطلقة لا عن الأولية المقيدة والآخرية المقيدة وذلك لكثرة الأوائل والأواخر المقيدة بموضوع معين فهى كثيرة يستلزم ذكرها استقراءً تاماً وذلك يحتاج إلى مؤلف خاص .

أولاً : أول ما نزل :

وفيه أربعة أقوال :

١- صدر سورة العلق : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ وهو مروى عن عائشة رضى الله عنها كما فى حديث بدء الوحى، رواه الشيخان وغيرهما .

٢- سورة المدثر وهو مروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه قال : سألت جابر بن عبد الله أى القرآن أنزل قبل؟ فقال : ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ فقلت : (**اقرأ**) ، فقال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: « إنى جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى فنوديت فنظرت أمامى وخلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو (يعنى جبريل) جالس على عرش بين

السماء والأرض فأخذتنى رجفة فأتيت خديجة ، فأمرتهم فـدثرونى فأنزل الله ، **﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾** »

وقد ذكر الحافظ السيوطى تأويلات لمحاولة الجمع بين رواية عائشة وجابر بن عبد الله ، ومنها :

١- مراد جابر فى أولية المدثر سورة كاملة أى أول سورة كاملة نزلت سورة المـدثر ، ولا دليل لهذا التأويل لأن سورة المدثر لم تنزل كلها دفعة واحدة .

٢- ومنهم من أوله بأنه أول ما نزل أى ما رواه جابر بعد انقطاع الوحى ، ويرد بأنهم عارضوا جابراً بـ(**اقرأ**) ، فقال للمعترضين : أحدثكم عن رسول الله وتحدثوننى؟

٣- ومنهم من جعل الأولية نسبية كل يخبر بما يعلم .

٤- ومنهم من جعل أولية ما قاله جابر فى الرسالة وأولية (اقرأ) فى النبوة .

٥- ومنهم من جعل أولية ما قال جابر فيـما نزل بسبب وهو ارتعاده ﷺ وما قالته عائشة فيما نزل بغير سبب .

والتحقيق أن فهم جابر بن عبد الله رضى الله عنهما من هذا الحديث السابق أن صدر سورة المدثر أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وأنه لم ينزل على النبى ﷺ وحى بالقرآن قبل هذا النجم قط ولا حتى بصدر سورة العلق (اقرأ) وأصر جابر على هذا الفهم حين راجعه أبو سلمة بن عبد الرحمن باحتمال أن الأولية لصدر سورة العلق، والمحققون من أهل العلم لا يقولون بصحة هذا الفهم من جابر بن عبد الله لما حدث به رسول الله ﷺ لمخالفة حديث عائشة وهو صريح فى أن الأولية المطلقة لـ (اقرأ) ، ومن المتقرر لدى الأصوليين أن النص يقدم على الاجتهاد المعارض له ، وأنه لا اجتهاد مع النص.

وهناك قولان آخران فى أول ما نزل :

ـ قول ثالث يقول: سورة الفاتحة .

ـ ورابع يقول : البسملة، وقد ضربنا صفحا عن ذكرهما بالتفصيل لضعفهما من جهة ومخالفتهما لما هو أصح منهما سنداً ومتناً من جهة أخرى.

ثانياً : آخر ما نزل على الإطلاق :

اختلف العلماء فى تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق ، واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبى ﷺ فكان هذا من دواعى الاشتباه وكثرة الخلاف على أقوال شتى :

الأول : أن آخر ما نزل قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٨١] أخرجه النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس، وكذلك أخرج ابن أبى حاتم قال آخر ما نزل من القرآن كله : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله** ﴾ ، وعاش النبى بعد نزولها تسع ليال ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول .

الثانى : أن آخر ما نزل آية الدين فى سورة البقرة وهى قوله سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾ إلى قوله : ﴿**والله بكل شئ عليم**﴾ [البقرة : ٢٨٢] وهى أطول آية فى القرآن .

الثالث : أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى فى سورة البقرة آنفاً : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ [البقرة :٢٧٨] .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطى رحمه الله من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة لأنها فى قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه

آخر ما نزل وذلك صحيح، واعلم أنه ما من قول قيل فى آخر ما نزل إلا عورض بقول آخر مما يؤكد أن هذه الأقوال بنيت على الاجتهاد وليس فيها توقيف صحيح عن النبى ﷺ .

سابعا نزول القرآن على سبعة أحرف

لا يخفى أن للعرب لهجات مختلفة اكتسبوا بعضها من فطرتهم وبعضها الآخر من جيرانهم ، وأن لسان قريش كانت له الصدارة لمكانتهم الدينية باعتبارهم أهل الحرم ، ولمكانتهم التجارية كذلك ، وربما اقتبس القرشيون بعض الكلمات واللهجات التى كانت تروق لهم من غيرهم ، وقد تنزل القرآن الكريم ابتداء بلسان قريش وأمر نبينا ﷺ بأن يقرئ أمته القرآن على ذلك ، فلم يزل يضرع إلى ربه ويستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف كلها شاف كاف .

- عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها» [متفق عليه] .

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف» [متفق عليه] .

- وعن أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان عند أضاة – أى غدير – بنى غفار قال: فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف. فقال: « أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك » ، ثم أتاه الثانية فقال: «إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين» ، فقال: « أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتى لا تطيق ذلك » ، ثم جاء الثالثة فقال : « إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف » ، فقال : « أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا

تطيق ذلك » ، ثم جاء الرابعة فقال: « إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا » [رواه مسلم] .

والأحاديث فى هذا مستفيضة ذكر السيوطى أنها رويت عن واحد وعشرين صحابيا ، ونص بعض أهل العلم على تواترها.

واختلفوا فى المراد بالأحرف السبعة على أقوال ، أشير إلى أهمها :

١- أن هذا الحديث مشكل، لأن الحرف مشترك بين حرف الهجاء ، وبين الكلمة، فيقال لها : حرف، وبين المعنى فيقال له حرف، وبين الجهة التى يطلق عليها الحرف أيضاً . قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ [الحج: ١١].

وقد سبق أن المشكل يمكن التعرف على المراد منه بعد التأمل ، ولا يعنى إشكاله التوقف فيه ، ولما كان القرآن يزيد على سبعة أحرف وكلمات ، ومعانى تعين أن يراد بالحرف الجهة ... ولكن ما هى ؟

٢- عدد السبعة لا يراد به الحصر ، وإنما يراد به التكثير فى الآحاد ، كما أن السبعين فى العشرات، والسبعمائة فى المئين قد يراد بها التكثير كذلك ، فيجوز أن تكون الأحرف ستة أو عشرة ، ويرد هذا القول ما روى من أن النبى ﷺ ، لم يزل يستزيد جبريل حتى انتهى معه إلى سبعة أحرف ، ولم يزد على ذلك ، فحقيقة السبعة مرادة .

٣- المراد بالأحرف القراءات ، ويرد بأن فى بعض كلمات القرآن تقل القراءات عن سبع، وفى بعضها زيادة على السبع .

٤- قال ابن قتيبة : المراد بها الأوجه التى يقع بها التغاير :

فأولها : ما يتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل : ﴿ **ولا يضار**

كاتب﴾ [البقرة : ٢٨٢] بالفتح والضم .

ثانيـــها : ما يتغير بالفعل مثل (بعد، وباعد) بلفظ الطلب والماضى .

ثالثـــها : ما يتغير باللفظ مثل (ننشزها ، وننشرها) .

رابـعها : ما يتغير بابدال حرف قريب المخرج مثل : (طلح منضود ، وطلع) .

خامسها : ما يتغير بالتقديم والتـأخير مثل : **﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾** [ق : ١٩] وسكرة الحق بالموت .

ســادسها : ما يتغير بزيادة أو نقصـان مثل : **﴿ والذكـر والأنثى ﴾ ﴿ ومـا خلق الذكروالأنثى﴾** .

ســابعها : ما يتغير بابدال كلمة بأخرى مثل : كالعهن المنفوش وكالصوف المنفوش .

فأنت ترى ابن قتيبة لاحظ فى الوجه الأول حركة الفعل ، وفى الوجه الثانى لاحظ الصيغة، وفى الوجه الثالث لاحظ الإهمال والإعجام .

وقد لوحظ على ما قال أنه لـم يستوعب كل أوجه القراءات من إدغام وإظهار وإمالة وغير ذلك .

٥- أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب فى التعبير عن معنى من المعانى يأتى القرآن منزلا بألفـاظ على قـدر هذه اللغات لهـذا المعنى الواحـد، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتى بلفظ واحد أو أكثر.

٦- الأحرف السبعة لغات سبع متفرقة فى القرآن الكريم كله، وليس معناه أن المعنى الواحد قد يجئ بسبع لهجات كالرأى السابق، بل معناه أن كلمة قد تجىء بلغة

وأخرى تجيء بلغة أخرى حتى ينتهى إلى سبع ، فهو فى جملته لا يخرج عن سبع لغات هى أفصح لغاتهم، فأكثره بلغة قريش ، ومنه بلغة هذيل ، أو ثقيف ، أو هوازن ، أو كنانة ، أو تميم ، أو اليمن .

واستدل أصحاب هذا الرأى بأن ابن عباس لم يفهم ﴿ **فاطر السماوات والأرض**﴾ [فاطر : ١] حتى سمع المتخاصمان يقول أحدهما عن البئر : أنا فطرتها . ولم يفهم : ﴿ **وأنت خير الفاتحين** ﴾ [الأعراف : ٨٩] حتى قالت بنت ذى يزن: تعالى أفاتحك . وعمر لم يفهم : ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ [عبس ٣١] ، ﴿ **أو يأخذهم على تخوف**﴾ [النحل : ٤٧] .

وقد نوقش أصحاب هذا القول بما يأتى :

أ - إن ذلك لم يؤد إلى التيسير المطلوب، بل يجعل القرآن أبعاضاً مختلفة .

ب - لو كان هذا الرأى صحيحاً، فكيف اختلف الصحابة فى لفظ واحد ؟

جـ- ما استندوا إليه من أن فى القرآن أحرفا بغير لغة قريش، يحتمل أن يكون قد تخيرتها قريش، أو توافقت مع لغتها كما سبق .

د - عدم فهم ابن عباس وعمر، لأنه لا يمكن لإنسان أن يحيط بلغته.

وبعد فأعلم أن من الأصول المقررة فى النزول على سبعة أحرف :

١- التيسير على الأمة .

٢- الاختلاف فى الألفاظ لا فى المعانى .

٣- القراءات توقيفية كما نزلت .

٤- الأمة مخيرة فى أى حرف تقرأ كما ورد فى الحديث : « فاقرأوا بأى حرف شئتم» .

٥- التوسعة كانت بعد الهجرة وشيوع الإسلام .

٦- التوسعة مظهر من مظاهر النعمة لا الفرقة .

٧- حرص الصحابة على القرآن وشدة إنكارهم لما لم يعلموا ، فلما علموا زال الشك، وقد سمع عمر من هشام بن حكيم آية من سورة الفرقان فأنكر قراءته لها حتى احتكما إلى النبى ﷺ ، فأقر كلا منهما على قراءاته، وقال لكل واحد : (هكذا أنزلت) .

والذى نميل إليه أن القرآن نزل أولا على حرف واحد، ثم بعد ذلك وصل إلى سبعة أحرف تيسيرا على الداخلين فى الإسلام من ذوى اللهجات المختلفة، وأن الخلاف الواقع بين عمر وهشام كان مرتبطا بتلقى كل منهما من النبى ﷺ ، وقد أقر كلاً منهما على ما تلقاه وقرأ به .

فلا يصح أن تكون الأحرف السبعة مثاراً لخلاف بعيداً عن التلقى التوقيفى، إذ لا تعارض فى المعانى بين الأحرف بعضها ، ومثالاً على ذلك فإن القراءات الصحيحة لا تضاد بين معانيها وإن اختلفت ألفاظها فمثلا : مالك وملك .. فى كل منهما معنى بلاغى لا يناقض المعنى الآخر (مع العلم بأن الأحرف غير القراءات) .

والأحرف السبعة على حقيقتها فى العدد، وكان الترخيص بها بعد الهجرة، وأن الأمر بالقراءة بأحد الأحرف للتخيير .

ولعل الراجح فى الأحرف السبعة أنها سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد لسبع قبائل من القبائل المشهورة ، التى يرجع إليها كلام سائر القبائل أو أغلبها نحو : أقبل ، وتعال وهلم وعجل وأسرع فهى ألفاظ مختلفة لمعنى واحد وإليه ذهب سفيان بن عيينة، وابن جرير، وابن وهب ، وخلائق ، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء ويدل له ما جاء في حديث أبى بكرة : (أن جبريل قال : يا محمد، اقرأ

القرآن على حرف، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة ، أو آية رحمة بآية عذاب كقولك : هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل) [أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد] .

قال ابن عبد البر : إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التى نزل القرآن عليها، وأنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون فى شيئ منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده،كالرحمة التى هى خلاف العذاب.)

فجميع الخلافات التى فى القرآن إما أن ترجع إلى الخلاف الحاصل من هذه اللغات السبع ، أو ترجع إلى معنى آخر يأتى على اللغات السبع كما يأتى على اللغة الواحدة ، وهو أن تكمل القراءة معنى آخر كملك ومالك ، وباعد وبعد .

وجميع الاختلافات ترجع إلى هذه الخلافات فى حدود أن تختلف الألفاظ ويتحد المعنى ، أو فى حدود ألا يتضاد المعنى .

ومن المقطوع به أن القراءات السبع ليست عين الأحرف السبعة ، وإنما هى بعض منها وأثر من آثارها ، ولا نسلم بنسخ ستة أحرف فى عهد عثمان ، فالأحرف كلها باقية ، والله أعلم بالصواب .

ثامنا ***الخلاصة***

القرآن الذى نزل به جبريل وألقاه إلى النبى ﷺ هو اللفظ والمعنى معًا، ولا عبرة لمن قال بخلاف ذلك من أهل الزيغ والابتداع.

* للقرآن ثلاثة تنزلات وهى :

- التنزل الأول : إلى اللوح المحفوظ .
- التنزل الثانى : إلى بيت العزة فى السماء الدنيا .
- التنزل الثالث : بواسطة أمين الوحى جبريل يهبط به على قلب النبى ﷺ.

* الحكمة فى إنزاله جملة واحدة إلى السماء الدنيا :

١- تفخيم أمره وأمر من أنزل عليه .

٢- فى تعدد النزول وأماكنه مبالغة فى نفى الشك عن القرآن وزيادة للإيمان والثقة به .

* الحكم والأسرار فى تنجيم القرآن الكريم :

كان إنزال القرآن على النبى ﷺ منجماً متفرقًا من بعثته إلى قرب وفاته، ومن الحكم فى ذلك ما يأتى:

١- تثبيت قلب النبى ﷺ وتقويته .

٢- التدرج فى تربية الأمة الناشئة علماً وعملاً .

٣- مسايرة الحوادث والطوارئ فى تجددها وتفرقها .

٤- الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده .

*** قصة بدء الوحى التى رواها البخارى ومسلم وغيرهما تتناقض مناقضة صريحة** مع الفرض الكاذب القائل بأن الوحى ليس إلا شعوراً نفسياً أو إشراقاً روحياً أو إلهاماً داخلياً .

أنواع الوحى :

١- التكليم .

٢- الإلهام .

٣- الرؤيا المنامية .

٤- الوحى بواسطة الملك .

كيفية الوحى إلى رسول الله ﷺ

كيفيتان بهما كان نزول القرآن :

١- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه .

٢- أن يأتيــه الملك فى صــورة رجل وهى أهون من الأولى .

من غير القرآن

١- النفث فى الروع .

٢- الرؤيا المنامية

٣- كلام الله المباشر له بكيفية لا نعلمها

* أول ما نزل من القرآن على الإطلاق

صدر سورة العلق وهو الصحيح الذى عليه الجمهور .

* آخر ما نزل على الإطلاق وردت آثار بأنه آية :

البقرة (٢٨١) أو البقرة (٢٨٢) أو البقرة (٢٧٨) ولعل هذه الآيات نزلت دفعة واحدة فأخبر كل عن بعضها بأنه آخر ما نزل.

- أنزل القرآن الكريم على سبعة أحرف كلها شاف كاف، واختلف فى المراد

بالأحرف السبعة على أقوال، والراجح أن المراد بها سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد نحو: أقبل، هلم، وتعال، وعجل، وأسرع .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص : ٣٣ - ٩٩ ، ٣٠ - ١٨٥ .

٢- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٢ - ٥٠ ، ٦٥ - ٧٤ ، ١٠٠ - ١١٧ ، ١٥٣ - ١٥٨ .

٣- التبيان فى علوم القران للصابونى ص ٣٥ - ٥٢ ، ٢٣٣ - ٢٤٩ .

٤- مباحث فى علوم القرآن لصبحى الصالح ص ٢٢ - ٦٢ ، ١٠١ ، ١١٦ .

تاسعاً أسئلة التقويم الذاتي

س١ كيف تدفع الشبهة القائلة بأن نزول القرآن كان بالمعنى وأن لفظه من عند النبى ﷺ ؟

س٢ وضح الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى .

س٣ شرف الله القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات، اشرح ذلك موضحاً الحكمة التى نتلمسها من ذلك .

س٤ ما الحكم والأسرار التى نتلمسها فى تنجيم القرآن الكريم ؟

س٥ ما هو معنى الوحى لغة ، وما هى أنواعه ؟

س٦ وضح فهمك لحقيقة الوحى من خلال قصة بدء الوحى التى رواها البخارى ومسلم وغيرهما .

س٧ هناك افتراء يقول إن الوحى ليس إلا شعوراً نفسياً أو إشراقاً روحياً أو إلهاماً داخلياً كيف تدحض هذا الافتراءات ؟

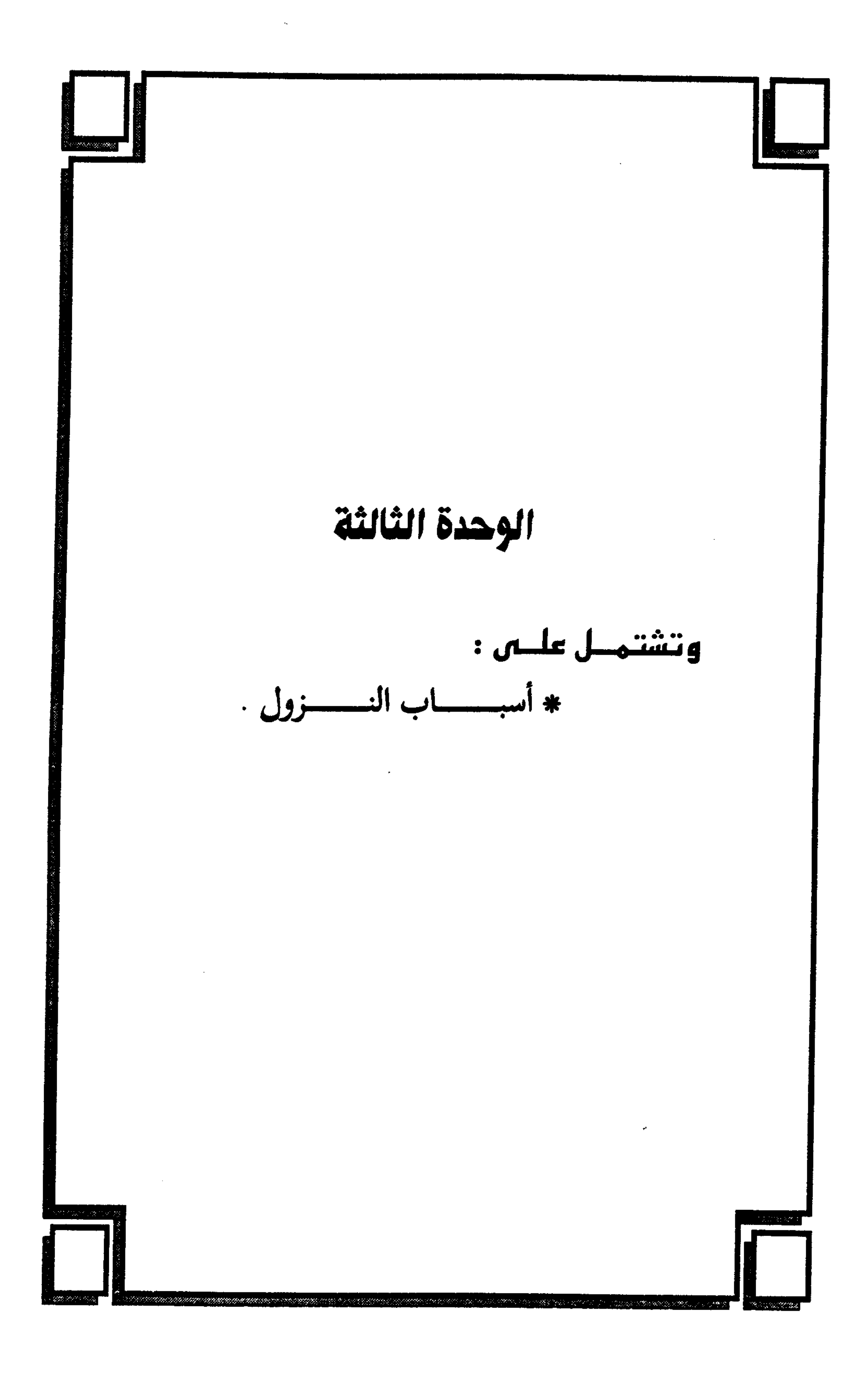
س٨ لماذا كان الوحى ينزل عليه ﷺ وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملك منهم أحد سواه ؟

س٩ للوحى كيفيات منها ما كان به نزول القرآن ومنها غير ذلك . وضح ذلك كما درسته ؟

س١٠ اذكر أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ؟ موضحاً للرأى الراجح مناقشاً للآراء المرجوحة ؟

س١١ ما الفوائد المتعلقة بدراسة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم ؟

س١٢ وضح المراد بالأحرف السبع التى نزل بها القرآن فى وجهة نظر الكاتب ؟



الوحدة الثالثة

وتشتمـل علـى :

* أسبـــاب النـــزول .

الوحدة الثالثة

أسبـاب النـزول

الأهداف الخاصة

يتوقع منك بعد دراسة هذه الوحدة أن تصبح قادراً على معرفة ما يلي :

[١] معني سبب النزول . [٢] فوائد معرفة أسباب النزول .

[٣] طريق معرفة سبب النزول . [٤] كيفية التعبير عن سبب النزول .

[٥] حالة تعدد أسباب النزول والنازل واحد

[٦] حالة تعدد النازل من الآيات والسبب واحد .

[٧] قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والرد علي ما يثار حولها من الشبهات .

محتويات الوحدة الثالثة

١-معنى سبب النزول . ٢-فوائد معرفة أسباب النزول .

٣- طريق معرفة سبب النزول . ٤- التعبير عن سبب النزول .

٥-تعدد الأسباب والنازل واحد . ٦-تعدد النازل والسبب واحد .

٧-العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المقدمة

القرآن الكريم قسمان :

– قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة ، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلي الحق ، وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلي بحث ولا بيان .

– وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة ، وهو موضوع بحثنا الآن ، غير أنا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت علي أسباب ، فذلك شأو بعيد ، وقد أفرده جماعة بالتأليف ، منهم : علي بن المديني شيخ البخاري ، ومنهم الواحدي ، وابن حجر ، والسيوطي الذي وضع فيه كتابا حافلاً محرراً سماه (لباب النقول في أسباب النزول) .

١ معنى سبب النزول

سبب النزول: هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه والمعنى أن حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ ، أو سؤال وجه إليه ، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال ، سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت ، كالخلاف الذى شجر بين جماعة من الأوس ، وجماعة من الخزرج ، بدسيسة من اليهود حتى تنادوا : السلاح السلاح ، ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة فى سورة آل عمران من أول قوله سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ [آل عمران : ١٠٠] إلى آيات أخرى بعدها هى أبلغ ما يكون فى التنفير من الانقسام والانشقاق والترغيب فى المحبة والوحدة والاتفاق، أم كانت تلك الحادثة خطأ بينا ارتكب، كذلك السكران الذى أمّ الناس فى صلاته وهو فى نشوته ، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال: (**قل يأيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون**) ، بحذف (لا) من « **لا أعبد** » فنزلت الآية تقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾ [النساء : ٤٣].

أو كانت تلك الحادثة تمنيا من التمنيات ، ورغبة من الرغبات ، كموافقات سيدنا عمر رضى الله عنه التى أفردها بعضهم بالتأليف ، ومن أمثلتها ما أخرجه البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر : (وافقت ربى فى ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ [البقرة: ١٢٥] ، وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت

كذلك) أ هـ .

والمراد بقول (أيام وقوعه) الوارد فى تعريف سبب النزول، الظروف التى ينزل القرآن فيها متحدثاً عن السبب ، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة، أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم ، كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين، فقال ﷺ: غدا أخبركم ، ولم يقل الا أن يشاء الله ، فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوماً على ما رواه ابن اسحاق ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعين يوماً، حتى شق عليه ذلك، ثم نزلت أجوبة هذه الأسئلة، وفى طيها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة، ويقول له فى سورة الكهف ﴿ **ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غدا، إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا** ﴾ [الكهف ٢٣- ٢٤] .

٢ فوائد معرفة أسباب النزول

زعم قوم أن الاشتغال بمعرفة أسباب النزول لا طائل تحته ، لأنه بحث تاريخى ، وهذا خطأ بين، فإن معرفة الظروف والمقتضى تعين على فهم المعنى فالنص إذا ورد عقيب واقعة أو سؤال علم أنه سيق ابتداء من أجل ذلك ،كان نصاً بيناً فيما نزل فيه .

وفوق ذلك فإن لأسباب النزول فوائد متعددة لا فائدة واحدة، منها :

١ – معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل :

وفى ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن ، وذلك لأن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها ، أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه ، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه ، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التى

نيطت بهذه الأحكام ، ومن أجلها جاء هذا التنزيل ، وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم والعلل إلى الإيمان إن كان منصفاً حين يعلم أن التشريع مبنى على رعاية المصلحة العائدة إلى الانسان، وأفعال الله عز وجل ومنها أحكامه مبنية على رعاية المصالح فى العاجل والآجل .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ [البقرة : ٢٣] فظاهر هذا أن الخطاب لكل من يصلح له الخطاب فيدخل فيه المسلمون، فإذا عرف السبب الذى من أجله نزلت الآية ، تبين أن المسلمين لم يرتابوا وأن التحدى كان للمشركين ولليهود حيث قالوا هذا الذى يأتينا به محمد ﷺ لايشبه الوحى و ﴿ **إنا لفى شك منه** ﴾ فعلم أن التحدى لم يكن للمؤمنين بل كان للمغترين المرتابين فيما نزل على سيدنا محمد ﷺ، والحكمة التى اقتضت التحدى هى الارتياب فمن لم يرتب بل آمن وأسلم فإن تحديه غير مستساغ .

٢ - الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال :

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : معرفة سبب نزول الآية يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، فمثلا : حكى عن عثمان بن مظعون وعمرو معدى كرب أنهما كان يقولان: الخمر مباحة . ويحتجان بقوله تعالى : ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا** ﴾ [المائدة : ٩٣] ، ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك، وهو أنا ناساً قالوا لما حرمت الخمر : كيف بمن قتلوا فى سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر ، وهى رجس ؟! فنزلت الآية [أخرجه أحمد والنسائى وغيرهما] .

ومعنى ذلك أن الحكم لا ينسحب إلا على الحي المكلف، فمن مات قبل التحريم أو عاش إلى ما بعد التحريم ، لكنه مات قبل العلم بالتحريم ، فهو غير داخل

في الحكم .

والآن أصبح العلم بتحريم الخمر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة فلا عذر لجاهل بهذا التحريم .

قال ابن دقيق العيد : معرفة بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

وانظر مثلاً إلى قوله تعالى ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن** ﴾ [الطلاق : ٤] ظاهره أن العدة لا تكون أشهراً إلا لمن ارتاب، فإذا علم السبب فهم المعنى الصحيح، وذلك أنه لما نزلت الآية في سورة البقرة في عدة النساء بقوله ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ [البقرة : ٢٢٨] قال قوم: قد بقي عدد من عدد لم يذكرن : الصغار والكبار، فنزلت الآية ﴿**واللائي يئسن** ﴾ [أخرجه الحاكم عن أبي] ، فعلم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدة ، وارتاب هل عليهن عدة أو لا ، وهل عدتهن كاللائي في سورة البقرة أو لا ؟ فمعنى إن ارتبتم: إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدون فهذا حكمهن، أي الصغار واللائي يئسن .

ومن ذلك ما أشكل على عروة بن الزبير من معنى قوله تعالى : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما** ﴾ [البقرة: ١٥٨] فإن ظاهر الآية الكريمة يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة حتى قال (عروة بن الزبير) لخالته عائشة أم المؤمنين : يا خالة إن الله تعالى يقول : ﴿ **فلا جناح عليه أن يطوف بهما** ﴾ فأرى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بينهما ؟! فقالت عائشة : « بئس ما قلت يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرت لقال الله تعالى: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما ... ثم أخبرته بأن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة وكانوا يحجون في سعيهم (لصنمين) أحدهما على

الصفا ويسمى (إسافاً) والثانى على المروة ويسمى (نائلة) ، فلما دخل الناس فى الإسلام تحرج بعض الصحابة من السعى بينهما خشية أن يلتبس الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم والحرج وتوجب عليهم السعي لله تعالى لا للأصنام » . فقد ردت عائشة على عروة فهمه وكان ذلك سبب النزول.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ [البقرة : ١١٥] فإنا لو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى ذلك أن المصلى لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً وهو خلاف الإجماع ، فلما علم سبب نزولها علم أنها فى نافلة السفر أو فيمن صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ بعد فوات الوقت على اختلاف فى ذلك، إلى غير ذلك من الأمثلة .

٣- دفع توهم الحصر :

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به** ﴾ [الأنعام : ١٤٥] .

ظاهر الآية يفيد حصر المحرمات فى هذه الثلاثة على حين أن الأمر ليس كذلك قال الإمام الشافعى : إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما احللتموه نازلاً منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول : لا آكل اليوم إلا حلاوة، والغرض المضادة لا النفى ولا الإثبات على الحقيقة، فكأنه تعالى قال : لا حرام إلا ما أحللتموه فى الميتة، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه : إذ القصد إثبات التحريم ، لا إثبات الحل، قال إمام الحرمين: وهذا فى غاية الحسن، ولو لا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة

مالك فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية

٤- تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يري أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ :

فمثلاً قد استشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] الآية . قال: ولئن كان كل امرئ فرح بما أوتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين!! ، حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبى ﷺ عن شئ فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه ما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك اليه وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه [أخرجه الشيخان] وعليه فإن التهديد بالعذاب خاص بمن يكتم الحق ويستبدل به الباطل ، لا فى كل من يفرح بما آتاه الله .

٥- معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها[١] :

وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعا فيكون التخصيص قاصراً على سواه، فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص مع أنه لايجوز إخراجه قطعا للإجماع المذكور .

ولهذا يقول الغزالى فى المستصفى : (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد) غلط أبو حنيفة فى إخراج الأَمَة المستفرشة من قوله ﷺ (الولد للفراش) والخبر إنما ورد فى وليدة زمعة إذ قال عبد بن زمعة : هو أخى وابن

١- إذ أن المخصص يخرج غيره من الحكم إلا سبب نزول الحكم .

وليدة أبي ولد على فراشه، فقال عليه الصلاة والسلام (الولد للفراش وللعاهر الحجر) فأثبت للأمة فراشاً، وأبو حنيفة لم يبلغه السبب فأخرج الأمة من العموم) .

٦ – معرفة سبب النزول تبين المبهم وتسمى المهمل :

فمثلاً زعم مروان أن الذى نزلت فيه ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما** ﴾عبد الرحمن بن أبى بكر، فردت عائشة وقالت : (والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته) وأصل القصة كما رواها البخارى فى الصحيح أن مروان كان عاملاً على المدينة، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيد ودعا إلى بيعته ، وقال : إن أمير المؤمنين أراه الله فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبوبكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : ما هى إلا هرقلية (يعنى أنها استبداد بالملك كعمل ملوك الروم) فقال مروان : سنة أبي بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : هرقلية .. إن أبا بكر ما جعلها فى أحد من ولده ولا فى أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ، فقال مروان : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان: إن هذا الذى أنزل الله فيه ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي** ﴾ [الأحقاف:١٧] ، فقالت عائشة من وراء الحجاب : « ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى (براءتى) ولو شئت أن أسمي من نزلت فيه لسميته » [صحيح البخارى] .

فلم تفصح السيدة عائشة عن الذى نزلت فيه الآية تأدبا فإن الله لم يسمه، ولكن جاء بالموصول الذى هو أعم من فرد معين، بناء على أن الصلة هى علة الحكم فهى فى كل من أهان والديه وأنكر البعث .

٧– تيسير الحفظ وتسهيل الفهم :

وتثبيت الوحى فى ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها ، وذلك لأن ربط

الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن .

٣ طريق معرفة سبب النزول

لا طريق لمعرفة سبب النزول إلا النقل الصحيح عن رسول اللهﷺ أو عن أحد من أصحابه، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي بل يكون له حكم المرفوع، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» [رواه البخاري] ومن الكذب عليه ﷺ بل وعلى الله عز وجل أن يدعى سبباً للنزول وليس بسبب، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا عن طريق الوحي المعصوم .

ومن هنا لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب كما قال الواحدي رحمه الله ، ولهذا كان نهج علماء السلف رحمهم الله التورع عن القول في شيء من ذلك بغير تثبت ، يقول محمد بن سيرين سألت عبيدة (ابن عمر السلماني) عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن .

فالقول في أسباب النزول ليس محلاً للاجتهاد والرأي ، بل هو مأثور منقول، لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه إذ هو أعلم بمواضع الاجتهاد والرأي، وأكثر تمييزا للمأثور عن الرأي .

أما إذا روى سبب النزول بحديث مرسل ـ أي سقط من سنده الصحابي وانتهى الى التابعي – فحكمه أنه لا يقبل إلا اذا صح واعتضد بمرسل آخر وكان الراوي له

من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة : كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير .

٤ التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات القوم فى التعبير عن سبب النزول:

ـ فتارة يصرح فيها بلفظ السبب فيقال : (سبب نزول الآية كذا) وهذه العبارة نص فى السببية لا تحتمل غيرها ، لكنها نادرة الوقوع ، فقلما تجد صحابيا يصرح فيقول: سبب نزول الآية كذا .

ـ وتارة لا يصرح بلفظ السبب ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة ، وهذه العبارة مثل تلك فى الدلالة على السببية أيضا . ومن الأمثلة على ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** [الشعراء: ٢٢٤] خرج النبى ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : « يا صباحاه » فاجتمعوا إليه فقال: « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً ، قال: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، فقال أبو لهب : تباً لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام فنزلت هذه السورة **﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾** .

وأحيانا يسأل الرسول ﷺ فيوحى اليه ويجيب بما نزل عليه ، ولا يكون التعبير بسبب النزول ولا بتلك الفاء ، ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه البخارى عن ابن مسعود قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحى ثم قال : **﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾** [الإسراء: ٨٥] .

وكما كان فى قصة خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت

فذهبت تشتكى من ذلك، فعن عائشة قالت: « تبارك الذى وسع سمعه كل شيء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول: يا رسول الله، أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى! اللهم إنى أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾ وهو أوس بن الصامت. وحكم هذه الرواية حكم ما هو نص فى السببية .

أما حين لا يذكر سبب ولا فاء ولا سؤال ويقول : نزلت الآية فى كذا أو أحسب هذه الآية نزلت فى كذا، أو ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا فليس نصا على السببية، بل يحتملها ويحتمل أمرا آخر وهو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام، والقرائن وحدها هى التى تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه، ومثال الصيغة الأولى ما روى عن ابن عمر أنه قال: أنزلت ﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ [البقرة : ٢٢٣] فى إتيان النساء فى أدبارهن، ومثال الصيغة الثانية ما رواه عبد الله بن الزبير من مخاصمة الزبير رجلاً من الأنصار فى شراج الحرة، وفى نهاية القصة يقول: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ [النساء : ٦٥] .

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد إحداهما نص فى السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصا فى السببية لنزول تلك الآية والآيات فإننا نأخذ فى السببية عما هو نص، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية، وذلك لأن النص أقوى فى الدلالة من المحتمل على ما هو مقرر عقلاً ونقلاً .

مثال ذلك : ما أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه: كانت اليهود تقول (من أتى امرأة من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول) فأنزل الله تعالى .

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

وما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال أنزلت **﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾** فى إتيان النساء فى أدبارهن .

فالمعول عليه فى بيان السبب هى رواية جابر الأولى لأن فيها ذكر الفاء وهى إيماء إلى السببية، وأما رواية ابن عمر فهى بيان لأنه قال فيها: أنزلت، فأنت ترى أن سبب نزول الآية دعوى اليهود تشويه المولود إن أتاها فى قبلها من الخلف، وتلك دعوى باطلة لقوله تعالى : **﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾** .

فتسمية ذلك حرثا يحدد الموضع الطبيعى من المرأة وهو القبل، أما إتيانها فى الدبر فحرام لأنه موضع أذى كالحيض المنهى عنه لما فيه من الأذى قال تعالى: **﴿ويسألونك عن المحيض﴾** [البقرة : ٢٢٢] فقد حرم الإتيان أثناء الحيض لعلة الأذى ثم قال : **﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم ﴾** فكأنه قال تؤتى المرأة أحيانا من أجل طلب الولد فثبت ذلك رواية ابن عمر .

وأما اذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات ليس شئ منها نصاً كأن يقول بعض المفسرين نزلت هذه الآية فى كذا ، ويقول الآخر نزلت فى كذا (ثم يذكر شيئا آخر غير ما ذكره الأول) فإن الروايتين تحملان على بيان المعنى لا على ذكر السببية ويكون هذا من التفسير بالرأى .

٥ تعدد الأسباب والنازل واحد

إذا تعددت الأسباب والنازل واحد فلا يخلو الحال من صورة من هذه الصور:

* الصورة الأولى: أن تكون إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة : ففى هذه الحال تلغى غير الصحيحة.

مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال : اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة قالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله تعالى : ﴿ **والضحى، والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ [الضحى: ١-٣] فهذه الرواية فيها إيماء إلى السبب ورويت فى الصحيحين فكانت أرجح من رواية الطبرانى وابن أبى شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها ، وكانت خادم رسول الله ﷺ أن جرو (كلب) دخل بيت النبى ﷺ ، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبى أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى ، فقال: يا خولة ما حدث فى بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتينى ؟! فقلت فى نفسى : لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبى ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فأنزل الله ﴿ **والضحى** ﴾ إلى قوله ﴿ **فترضى** ﴾ .

فها أنت عزيزى الدارس ترى أن رواية الطبرانى وابن أبى شيبة أقل من رواية الصحيحين، زيادة على ما فيها من علة قادحة ، فإذا مات الجرو ومضت عليه أربعة أيام انبعثت منه رائحة كريهة يمكن بها أن يعرف، قال ابن حجر : قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفى إسناده من لا يعرف ، فالمعتمد ما فى الصحيحين .

* **الصورة الثانية:** وهى صحة الروايتين كلتيهما ولإحداهما مرجح فحكمها أن

نأخذ فى بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة .

وقد يكون المرجح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوى إحداهما مشاهداً للقصة دون راوى الأخرى .

مثال ذلك : ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم : لو سألتموه فقالوا : حدثنا عن الروح ؟ فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحى ثم قال : ﴿ **قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [الإسراء :٨٥] وما أخرجه الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل ذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله : ﴿ **ويسألونك عن الروح**﴾ الآية، فهذا الخبر الثانى يدل على أنها بمكة وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه، أما الأول فصريح فى أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه ، وهو أرجح لوجهين :

١- أنه رواية البخارى ، ومن المتقرر لدى المحدثين أن ما رواه البخارى أصح مما رواه غيره أعنى رواية الترمذى فى مقامنا هذا .

٢- أن راوى الخبر الأول هو ابن مسعود رضى الله عنه وكان مشاهداً للقصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الرواية الأولى بخلاف الخبر الثانى فإن رواية ابن عباس لا تدل على أنه كان حاضراً للقصة، ولا ريب أن للمشاهدة قوة فى التحمل وفى الأداء وفى الاستيثاق ليست لغير المشاهدة ومن هنا أعمل علماء القرآن الرواية الأولى وأهملوا الثانية .

* **الصورة الثالثة** : وهى ما استوت فيه الروايتان فى الصحة ولا مرجح لإحداهما، لكن يمكن الجمع بينهما بأن كلاً من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً، لتقارب زمنيهما، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد

السبب لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه، قال الحافظ ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب.

مثال ذلك : ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك من سحماء ، فقال النبى ﷺ : « البينة أو حد فى ظهرك » فقال يا رسول الله ، إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟! وفى رواية أنه قال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهرى من الحد، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم**﴾ حتى بلغ ﴿ **إن كان من الصادقين** ﴾ [النور٦ - ٩].

وأخرج الشيخان (واللفظ للبخارى) عن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصم بن عدى ـ وكان سيد بنى عجلان ـ فقال : كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه ؟! أم كيف يصنع ؟ سل لى رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأتى عاصم النبى ﷺ فقال : يا رسول الله .. (وفى رواية مسلم) فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، فقال عويمر : والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فجاءه عويمر فقال : يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلاً ، أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : قد أنزل الله القرآن فيك وفى صاحبك فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله فى كتابه فلاعنها.

فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ، ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانهما ، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية ، ثم قفاه عويمر قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرة وبنفسه مرة أخرى ، فأنزل الله الآية إجابة للحادثتين معاً ، ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال احداهما وإهمال الأخرى إذ لا مانع يمنع من الأخذ بهما على ذلك الوجه، ولا يجوز أن نردهما معاً ، لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما ، ولا يجوز أيضا أن نأخذ

بواحدة ونرد الأخرى، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح، فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً .

* **الصورة الرابعة :** وهى استواء الروايتين فى الصحة ، دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب، فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار النزول لأن فيه إعمالا لكل رواية ولا مانع منه .

قال الزركشى فى البرهان : وقد ينزل الشئ مرتين تعظيما لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه أ هـ .

مثال ذلك : ما أخرجه البيهقى والبزار عن أبى هريرة أن النبى ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال : « لأمثلن بسبعين منهم مكانك » فنزل جبريل – والنبى ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ [النحل : ١٢٦] إلى آخر السورة ، وهن ثلاث آيات.

وأخرج الترمذى والحاكم عن أبى بن كعب قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة ، منهم حمزة فمثلوا به ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنزيدن عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله : ﴿**وإن عاقبتم**﴾ الآية .

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت فى غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت فى يوم فتح مكة على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين، فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة واحدة عقبيهما معاً، وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها، مرة فى أحد ومرة يوم الفتح، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن سورة النحل كلها مكية، وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين فى المدينة، وتكون عدد مرات نزولها ثلاثاً . وبعضهم يقول : إن سورة النحل مكية ما عدا

خواتيمها تلك فإنها مدنية ، وعليه فعدد مرات نزولها ثنتان فقط .

شبهة وجوابها :

قد استشكل البعض على تكرار النزول بأنه عبث ما دامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد، وحفظها الرسول ﷺ واستظهرها الحفاظ من الصحابة ويمكن الرجوع إليها من غير حاجة إلى نزولها مرة أخرى .

والجواب أن هناك حكمة عالية فى هذا التكرار وهى تنبيه الله لعباده، ولفت نظرهم إلى ما فى تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة والفوائد الجمة التى هم فى أشد الحاجة إليها، فخواتيم سورة النحل التى معنا مثلاً، نلاحظ أن الحكمة من تكرارها هى تنبيه الله لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية فى تحرى العدالة، وضبط النفس عند الغضب، ومراقبة الخالق حتى فى القصاص من الخلق، والتذرع بالصبر والثبات ، والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره لكل من اتقاه وأحسن فى عمله .

أضف إلى ذلك ما ذكره الزركشى آنفاً من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر وتذكير به خوف نسيانه .

٦ تعدد النازل والسبب واحد

قد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة (على عكس ما سبق) ولا مانع من ذلك لأنه لا ينافى الحكمة فى إقناع الناس ، وهداية الخلق وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ فى الاقناع وأظهر فى البيان .

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ما أخرجه ابن جرير الطبرى عن ابن عباس

قال: كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل شجرة فقال : « أنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاه رسول الله ﷺ فقال علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة** ﴾ [سورة التوبة ٧٤]

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شئ ألا إنهم هم الكاذبون، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ [سورة المجادلة ١٨، ١٩] .

والوجه الجامع بين النصين تسجيل الكذب على المنافقين لكن فى النص الأول أنكروا قولهم، فكذبهم الله وأظهر ما قالوه وبين ما انتهوا إليه، ثم كشف عن خبايا نواياهم، وعن الدوافع لهم على مخالفة الله ورسوله، وفتح لهم باب التوبة، وبين لهم أنها تمحو ذنوبهم وإلا ترددوا فى المصير المحتوم .

أما النص الثانى : فالحلف كذبا أمام الله يوم القيامة ظانين أن هذا ينجيهم ، فكذبهم الله وبين ما كانوا عليه من اتباعهم للشيطان .

٧ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

اتفق أغلب الأصوليين والفقهاء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن ورود اللفظ العام على مناسبة خاصة لا يعنى اختصاص هذه المناسبة

بالحكم، بل يتعدى الحكم منها إلى ما ماثلها، فورود آية الظهار في أوس بن الصامت أو سلمة بن صخر لا يعنى اختصاصهما وحدهما بحكم الظهار بل يتعدى الحكم إلى كل من ظاهر مثلهما، ونزول آيات اللعان في هلال بن أمية لا يعنى اختصاصه وحده بحكم اللعان ، بل يتعدى ذلك إلى كل من لاعن مثله، ونزول حد القذف في رماة عائشة لا يعنى اختصاصهم وحدهم بهذا الحكم بل يتعدى ذلك إلى كل من قذف مثلهم وهكذا، والقول باختصاص هذه الأحكام بهؤلاء الأعيان لا يجرؤ على مثله مسلم ولا عاقل لما يؤدي إليه من إبطال عموم الكتاب .

والقول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو الحق الذى لا معدل عنه، وهو الذى يتفق مع عموم أحكام الشريعة، والذى سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها .

والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم، وإذا كان قد وجد من أهل العلم من قال: إن العبرة بخصوص السبب لابعموم اللفظ فإنهم لم يقصدوا بذلك اختصاص عمومات الكتاب بأعيان الأشخاص الذين نزلت فيهم دون غيرهم، فإن هذا كما سبق لا يجترئ عليه مسلم غير مغلوب على عقله، وإنما غاية ما ذهبوا إليه أنها تختص بنوع ذلك الشخص المعين فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التى لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرا بمدح أو بذم فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : من يرى أن العبرة بخصوص السبب يريد بذلك أن من نزلت فيه الآية دخل دخولاً أولياً ودخل ما يشبهه تبعاً ، ولا يتصور من مسلم إبطال عموم الكتاب

وهذا توجيه حسن ويكون الفرق بين من يقول: العبرة بعموم اللفظ، وبين من يقول: العبرة بخصوص السبب أن الأولين يرون الدخول بعموم اللفظ أصلاً والآخرين يرون الدخول تبعاً ، بعد دخول صورة السبب .

شبهة على قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

بادئ ذى بدء لا يخفى أن القرآن الكريم هو الوحى الإلهى الخاتم، وأنه محفوظ بحفظ الله عز وجل ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩] ، وهو الحجة على الناس والمعجزة المتحدية دائماً وأبداً، وهو نور الله المحفوظ لا حفظاً متحفياً ، إنما حفظ كمال وتمام وعمل بهذا القرآن المحفوظ .

لكن بعض أدعياء العلم فى هذه الأيام من دعاة التغريب والعلمانية يريدون أن يستبدلوا بميزان الرواية والسند وقواعد الأصول والحديث وشروطه طريقة الاستنتاج الشخصى، وميزان الرضا النفسى، ومنهج التوسم الذى لا يضبطه شئ إلا دوافع الرغبة وكوامن الأغراض والمذاهب التى يضمرونها .

واعتماداً على هذه الطريقة أخذوا يدعون أن كل آيات القرآن لها أسباب نزول، وأن هذه الأسباب التى تجاوزها التطور والواقع والتاريخ هى « علة » تشريع هذه الأحكام، وهى « الواقع » الذى صنع النص القرآنى أو استدعاه، وأن «حياة» الأحكام قد انقضت بانقضاء الأسباب التى سببتها !!

يبدأ هؤلاء فريتهم هذه بالحكم على كل أحكام التشريع فى القرآن «بالنسبية » فينفون عنها « الإطلاق » « فأحكام التشريع فى القرآن ليست مطلقة، بل أن كل آية تتعلق بحادثة بذاتها ، فهى مخصصة بسبب التنزيل، وليست مطلقة .. » .

وما دامت مخصصة – أى الآيات القرآنية – بأسباب نزولها، وقد طوى التاريخ الوقائع والأحداث التى كانت سبباً فى النزول ، فإن طى صفحات الأحكام أى

المسببات حتمى لارتباطه بذهاب « الأسباب » فى النزول .

فإن من المتقرر فى أصول الفقه أن الأحكام تدور مع عللها وجوداً وعدماً، وبالتالى لم يعد القرآن مصدراً للأحكام التشريعية بعد زوالها بزوال الأسباب التى تعلقت واختصت بها .

ولقد رفض هؤلاء القاعدة التى اتفقت عليها الأمة والتى سبقت فى العنوان الفائت من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قائلين : إنه منهج فقهى ، وليس منهجاً شرعياً ، أى أنه منهج قال به الفقهاء ، ولم يرد لا فى القرآن ولا فى السنة النبوية ، بل لم يقل به أحد من الصحابة ولا التابعين الأوائل، ويتأدى هذا المنهج الفقهى فى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟؟

هذه هى الشبهة القائمة فى رؤوس هؤلاء الكتاب ومن على شاكلتهم ممن لم يدرسوا أصول الشريعة الاسلامية.

والجواب عن هذه الشبهة أن نسأل :

١- هل الآيات التى نزلت لأسباب خاصة قد وقف حكمها عند حدود من نزلت فيهم من الصحابة ولم تتجاوزهم إلى غيرهم من بقية الصحابة الأجلاء ؟

* خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان..**﴾ [البقرة : ٢٢٩] وهى قد نزلت فى رجل عزم على أن يطلق امرأته، حتى إذا اقتربت نهاية عدتها راجعها، ثم عاود الطلاق والمراجعة، وذلك حتى يحبسها، فلا تبين منه ، ولا يأتيها ...

أهذه الآية تشريع عام لعموم الألفاظ التى تفهم فى ضوء سبب النزول أم أنها كانت خاصة بالرجل والمرأة اللذين نزلت فيهما ؟ !

* قوله تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ [الممتحنة ٨] وهذه الآية قد نزلت فى قتيلة بنت عبد العزى - وكانت مشركة - قدمت على ابنتها أسماء بنت أبى بكر ، فلم تقبل أسماء هداياها ولم تدخلها منزلها . فسألت عائشة النبى ﷺ عن ذلك فتلا الآية : فأدخلتها منزلها ، وقبلت هداياها.

أفحكم هذه الآية خاص بسبب نزولها ؟ وبمن نزلت فيهم ؟ أم أنها تشريع عام للعلاقة بغير المسلمين طوائف وأمما ودولا ؟ ! .

* وقوله تعالى: ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله** [البقرة : ٢٣٠] وهى قد نزلت فى عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك طلقها رفاعة بن وهب فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير القرظى فطلقها قبل أن يمسها ، وسألت النبى أن ترجع إلى رفاعة؟ فقال ﷺ : لا حتى يمس .

أهذه الآية خاصة بمن نزلت فيهم ؟ أم هى تشريع عام بعموم ألفاظ الآية ؟.

إلى غير ذلك من عشرات الآيات التى نزلت على أسباب خاصة وبقى حكمها عاما على سائر المسلمين، أفيقبل الادعاء بأن هذه الآيات خاصة بمن نزلت فيهم ؟ وبأن أحكامها ليست عامة ولا مطلقة ؟ هل هذا قول معقول ؟ الجواب واضح كل الوضوح !!

٢- إن أسباب النزول ليست منشئة للآيات، ولا هى العلة فى تشريع الأحكام، وإنما هى مناسبات للنزول تساعد - كطريق من طرق عدة - على فهم الآيات على ما سبق بيانه فى فوائد أسباب النزول .

فالسؤال عن الأهلة أو الخمر أو الروح .. ليس هو المنشئ للآيات ، ولا للأحكام الواردة فيها ... وإنما هو مقارن للوحى بالآيات المعبرة عن سنن الله وأحكامه

فى هذه الآيات الأهلة ، الخمر ، المواقيت . وهذا عكس التصورات الإنسانية التى ينشئها الواقع ويحدد لها المضامين

وحبس النص القرآني فى سبب النزول واعتقاد أنه المنشىء للنص منهج مادى ماركسى يجعل النص ثمرة للواقع ، وتابعاً له ، ومعلولا به ، وجوداً وعدماً!

فالوقائع (مناسبات النزول) و (ظرف الزمان) الذى نزلت فيه الآيات ، فالعلاقة بينهما لا تعدو الاقتران، ولا تدخل أبداً فى باب العلة والمعلول

وقد عرف السيوطى رحمه الله سبب النزول فقال: والذى يتحرر فى سبب النزول أنه : ما نزلت الآية أيام وقوعه [الاتقان جـ١/٣١]

ثم يفصل السيوطى فى بيان منهاج الصحابة والتابعين القائم على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأن السبب ليس أكثر من الواقعة التى تضمنت الآية حكمها ، واقترن نزولها بحدوثها ، فيقول : (وقد نزلت آيات فى أسباب واتفقوا (أى الصحابة والتابعون) على تعديتها إلى غير أسبابها ، كنزول آية الظهار فى سلمة بن صخر، وآية اللعان فى شأن هلال بن أمية ، وحد القذف فى رماة عائشة ، ثم تعدى إلى غيرهم، ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم فى وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة وهو شائع ذائعٌ بينهم)

تلك هى حقائق منهج الصحابة والتابعين - بمن فيهم ابن عباس - فى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ! لأن السبب مجرد واقعة اقترن حدوثها بنزول الآية والحكم ، فحكم الواقعة يلتمس فى الآية ، والواقعة هى مناسبة نزول ، وليست علة للنزول والأحكام

فالصحابة والتابعون ، وعلماء أسباب النزول وغيرهم مجمعون ومجتمعون على منهاج « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » فلا عبرة بما يقوله أهل الزيغ من تلاميذ الاستشراق وصرعى الغزو الفكرى!

٨ الخلاصة

١- القرآن الكريم قسمان :

- قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق .
- وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة وهو موضوع بحثنا فى هذه الوحدة .

٢- سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم .

٣- فوائد معرفة أسباب النزول :

أ - معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل وفى ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن .

ب - الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال .

جـ- دفع توهم الحصر .

د - معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها .

هـ - معرفة سبب النزول تبين المبهم وتسمى المهمل .

و - تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحى فى ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها .

٤- لا طريق لمعرفة سبب النزول إلا النقل الصحيح، فهو ليس محلاً للاجتهاد والرأى.

٥- تختلف عبارات القوم فى التعبير عن سبب النزول :

أ - فتارة يصرح فيها بلفظ السبب .

ب - وتارة يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سردها حادثة .

جـ- وأحيانا يسأل الرسول ﷺ فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه، وتفهم السببية من المقام .

٦- حين لا يذكر سبب ولا فاء ولا سؤال ويقال: نزلت الآية فى كذا فليس هذا نصاً على السببية، بل هو تفسير إجمالى لما تضمنته الآية .

إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد إحداهما نص فى السببية والثانية ليست نصاً فى السببية فإننا نأخذ فى السببية بما هو نص ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية .

٧- إذا تعددت الأسباب والنازل واحد فلا يخلو الحال من إحدى الصور الآتية :

أ - أن تكون إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة ففى هذه الحالة تلغى غير الصحيحة .

ب - صحة كل من الروايتين ولإحداهما مرجح، فعندئذ نأخذ فى بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة .

جـ- ما استوت فيه الروايتان فى الصحة ولامرجح لإحداهما لكن يمكن الجمع بينهما بأن كلاً من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً لتقارب زمنيهما فعندئذ نحمل الأمر على تعدد السبب.

د - استواء الروايتين فى الصحة دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب فعندئذ نحمل الأمر على تكرار النزول لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه .

وفى تكرار النزول حكمة عالية وهى تنبيه الله لعباده إلى ما فى تلك الآية المكررة من الوصايا والفوائد، وكذلك تعظيم لشأن المكرر وتذكير به خوف نسيانه .

٨- قد يكون أمر واحد سببا لنزول آيتين أو آيات متعددة .

٩- الصحيح المعتمد عند الأصوليين أن « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وهذا هو الذى يتفق مع عموم أحكام الشريعة، وهو الذى سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة.

ومن قال من أهل العلم إن « العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ » فإن مراده بذلك: أن من نزلت فيه الآية دخل دخولاً أولياً ودخل ما يشبهه تبعاً، ولا يتصور من مسلم إبطال عموم الكتاب .

١٠- لا عبرة لما ذهب إليه بعض أدعياء العلم فى هذه الأيام من أن أحكام التشريع فى القرآن ليست مطلقة، وأنها مخصصة بسبب التنزيل وبالتالى لم يعد القرآن بزعمهم مصدراً للأحكام التشريعية بعد زوال الأسباب التى تعلقت واختصت بها!! والجواب على هذه الشبهة :

أ - أن الآيات التى نزلت لأسباب خاصة لم تختص بالذين نزلت فيهم من الصحابة دون غيرهم، بل اتفق الصحابة والتابعون والأمة قاطبة على تعديتها إلى غير أسبابها .

ب- أن أسباب النزول ليست منشئة للآيات ولا هى العلة فى تشريع الأحكام، إنما هى مجرد وقائع اقترن حدوثها بنزول الآية والحكم .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص ٩٩ - ١٣٠ .

٢- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٧٥ - ٩٩ .

٣- التبيان فى علوم القرآن للصابونى ص ٢١ - ٣٤ .

٤- مباحث فى علوم القرآن لصبحى صالح ص ١٢٧ - ١٦٣ .

أسئلة التقويم الذاتي

١- يشتمل القرآن الكريم من حيث أسباب النزول على قسمين .. ما هما ؟

٢- ما معنى سبب النزول ؟ اذكر ثلاثة أمثلة لتوضيح ذلك ؟

٣- ما المراد بقوله (أيام وقوعه) الوارد فى تعريف سبب النزول ؟

٤- اذكر فوائد معرفة أسباب النزول مع ضرب مثل واحد على الأقل عند ذكر كل فائدة .

٥- ما هو طريق معرفة سبب النزول ؟

٦- ما حكم سبب النزول إذا روى بحديث مرسل ؟

٧- ما هى طرق التعبير عن سبب النزول ؟

٨- وضح كيف يمكن أن يتعدد النازل من الآيات ويكون السبب واحداً مع ضرب مثال .

٩- وضح من خلال دراستك فهمك لقاعدة « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » مع ضرب أمثلة .

١٠- ذهب جماعة من العلماء إلى أن « العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ » فهل يعنى هذا إبطال عموم الكتاب ؟ وإن كانت الإجابة بالنفى فما مقصودهم ومرادهم ؟

١١- هناك افتراء مفاده أن أحكام التشريع فى القرآن ليست مطلقة فهى مخصصة بسبب التزيل .... كيف تدحض هذا الافتراء من خلال دراستك ؟

١٢- اختر من المجموعة الأولى مايناسبها من المجموعة الثانية.

أ - إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد إحداهما نص فى السببية والثانية ليست نصاً فى السببية .

ب- إذا كانت إحدى الروايتين فى سبب النزول صحيحة والأخرى غير صحيحة

جـ-عند صحة الروايتين فى سبب النزول ولإحداهما مرجح .

د - إذا استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح لإحداهما لكن يمكن الجمع بينهما وتقارب زمانهما .

هـ- عند استواء الروايتين فى الصحة دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب .

أ - تلغى الرواية غير الصحيحة .

ب- تحمل الروايتان على بيان النص لا على ذكر السبب .

جـ- نحمل الأمر على تعدد السبب .

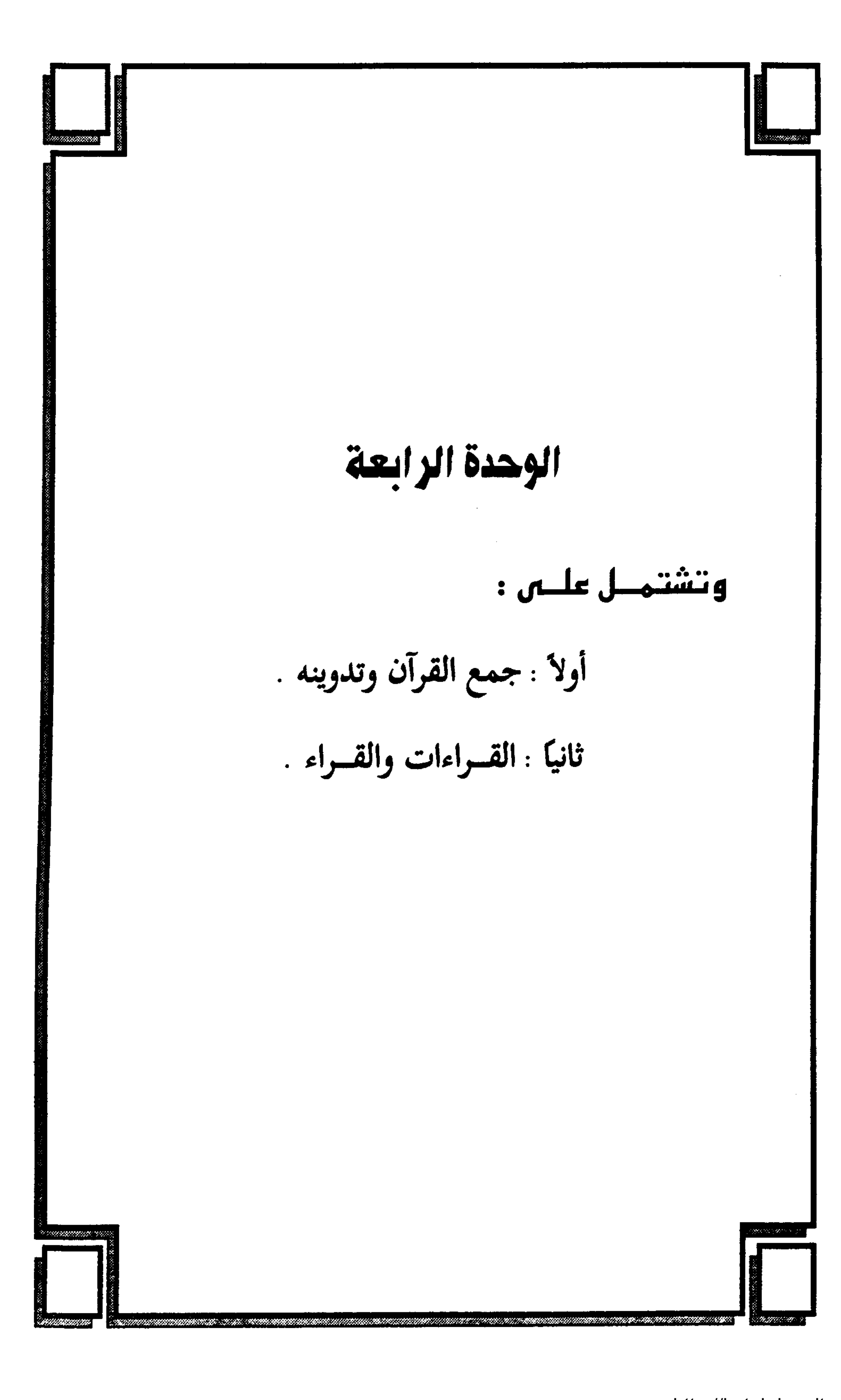
د - تلغى الروايتان معاً بسبب التعارض .

هـ - نحمل الأمر على تكرار النزول .

و - تقبل الروايتان ولو كان لا يمكن الجمع بينهما .

ز- نأخذ فى بيان السبب بما هو نص ونحمل الأخرى على أنه بيان لمدلول الآية .

ح- نأخذ فى بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة .



الوحدة الرابعة

وتشتمل على :

أولاً : جمع القرآن وتدوينه .

ثانيًا : القراءات والقراء .

أولاً جمع القرآن وتدوينه

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراسة هذه الوحدة أن تكون مُلِمًّا بما يأتي :

[١] المراد بجمع القرآن .

[٢] أطوار جمع القرآن .

[٣] ترتيب الآيات والسور أمر توقيفي أم اجتهادي .

[٤] تسمية السور أمر توقيفي أم اجتهادي .

[٥] كتابة المصحف بالرسم العثماني أمر توقيفي أم اجتهادي .

[٦] إعجام المصحف .

[٧] الشبهات التي أثيرت حول جمع القرآن ، والرد عليها .

[٨] حكم حرق المصحف إذا بلي أو تمزق .

المحتويات

١- المراد بجمع القرآن .
٢- أطوار جمع القرآن .
٣- ترتيب الآيات في السور توقيفي .
٤- ترتيب السور
٥- تسمية السور .
٦- الرسم العثماني .
٧- إعجام المصحف .
٨- شبه مردودة .

١ المراد بجمع القرآن

يطلق تعبير جمع القرآن ويراد به عند العلماء أحد أمرين:

– **الأول** : جمع القرآن بمعنى حفظه واستظهاره فى الصدور، فجُمَّاع القرآن على هذا المعنى هم حفاظه، وهذا المعنى هو المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ [القيامة:١٦–١٨] .

وقد روى البخارى ومسلم عن ابن عباس بيانه لمعنى هذه الآية فى قوله : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه**﴾ يقول: إن علينا أن نجمعه فى صدرك ثم تقرأه، ﴿ **فإذا قرأناه** ﴾ يقول إذا أنزلناه عليك ﴿ **فاتبع قرآنه** ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾ نبينه بلسانك.

وقد كان النبى ﷺ بذلك أول الحفاظ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة فكان فيهم من الحفاظ خلق كثير، وما ورد من أن الحفاظ أربعة أو سبعة فإنه لا يراد به الحصر، وإنما يمكن تخريجه على أن الرواة لهذه الأخبار قد أخبر كل منهم بما علم، أو أن هؤلاء هم الذين عرضوه على النبى ﷺ واتصلت بنا أسانيدهم، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير، ولا أدل على ذلك من أن الذين قتلوا فى بئر معونة من الحفاظ كانوا سبعين كما ورد ذلك فى الصحيح.

– **الثانى** : جمع القرآن بمعنى كتابته كله مرتبا أو غير مرتب، أى مفرق الآيات والسور، أو مرتب الأيات فقط وكل سورة فى صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات والسور فى صحائف مجتمعة .

٢ أطوار جمع القرآن

لقد مر جمع القرآن على هذا النحو بثلاثه أطوار :

* الطور الأول: جمعه فى عهد النبى ﷺ .

ويعنى بهذا الجمع التدوين، ووضع الآيات التى تأخر نزولها فى مكانها من السور، فقد اتخذ النبى ﷺ كتابا للوحى من أجلاء الصحابة كعلى ومعاوية وأبى بن كعب وزيد بن ثابت، كانت تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ويرشدهم إلى موضعها من سورتها حتى تظاهر الكتابة فى السطور الجمع فى الصدور، ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله ﷺ كما كان بين الصحابة من يكتب ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم دون أن يأمرهم النبى ﷺ، فيخطونه فى العسب واللخاف والرقاع والأقتاب والأكتاف وقطع الأديم ، وكانوا يعرضون ما لديهم من القرآن على رسول الله ﷺ حفظا وكتابة، ومن هؤلاء من جمع القرآن كله ، ومنهم من جمع ما تيسر له، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة نزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها ثم خرج فى سرية مثلا فنزلت فى غيابه سورة فإنه كان إذا رجع يأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ثم يستدرك ما فاته فى غيابه فيجمعه ويتتبعه على حسب ما يتيسر له فقد يقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك.

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل سنة من ليالى رمضان، فعن ابن عباس رضى الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن» [متفق عليه] ، ولعظم اهتمامه ﷺ بالقرآن أرجأ كتابة أى شىء من السنة حتى لا يختلط شىء منها بالقرآن الكريم.

لم يجمع القرآن فى عهد النبى ﷺ فى مصحف عام :

ولم يكن تدوين القرآن فى عهد النبى ﷺ مجتمعاً فى مصحف عام بل ينزل الوحى فيحفظه القراء ويكتبه الكتبة، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه فى مصحف واحد لأنه ﷺ كان يترقب نزول الوحى من حين لآخر وقد يأتى الوحى فينسخ ما شاء الله أن ينسخه من آية أو آيات ، هذا بالإضافة إلى أن ترتيب الآيات والسور لم يكن على ترتيب النزول ، فلو جمع القرآن فى مصحف واحد يومئذ لكان عرضة للتغيير المستمر كلما تنزلت آية أو وقع نسخ مع عسر أدوات الكتابة يومئذ .

وعلى هذا فمعنى قول زيد بن ثابت رضى الله عنه: (قبض النبى ﷺ ولم يكن القرآن جمع فى شئ) أى لم يكن جمع مرتب الآيات والسور فى مصحف واحد، فلما استقر الأمر بختام التنزيل وأمن النسخ بوفاة الرسول ﷺ وتقرر الترتيب ووجد من الدواعى ما يقتضى نسخه فى مصحف أو صحائف وفق الله الخلفاء الراشدين إلى القيام بهذا العمل الجليل، وكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضى الله عنه .

الطور الثانى : جمعه فى عهد أبى بكر الصديق:

عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل فى عهد النبى ﷺ، ولكنه كان مفرقاً فى الرقاع والأكتاف والعسب، فلما كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه أمر بجمعه فى مصحف واحد مرتب الآيات، ملتزماً فى جمعه غاية الدقة والتثبت مقتصراً فيه على ما لم تنسخ تلاوته ، مشتملاً على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن، فحاز هذا العمل إجماع الأمة كلها ، وصار به أبو بكر أول من جمع القرآن على هذه الصفة فى مصحف، بل قيل إن تسمية القرآن بالمصحف نشأت من ذلك الحين، يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه : أعظم الناس فى المصاحف أجرا أبو بكر ، رحمة الله على

أبى بكر، هو أول من جمع كتاب الله !

أما قصة هذا الجمع فقد رواه البخارى فى صحيحه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : (أُرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإنى أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ، قال عمر : هو والله خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر، قال زيد : قال أبو بكر، إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره: ﴿ **لقد جاءكم رسول** ﴾ حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر .

ونستخلص من هذا الحديث الذى هو أصل هذا الباب ما يأتى :

١- الجمع فى عهد الرسول وترتيب الآيات كان بتوقيف منه ﷺ.

٢- الراوى للجمعين هو زيد بن ثابت، الشاب العاقل الذى لم يتهم، والذى كان أحد كتاب الوحى فى عهد النبى ﷺ .

٣- كانت السور مفرقة عند الصحابة، فأراد الصديق بحكم المصلحة أن يفعل شيئاً بعد أن رأى القراء قد قتل بعضهم، وفى هذا خطورة على القرآن وكان معهوداً به إلى

صدور القراء وصحفهم الخاصة .

٤- لم يكن أبو بكر منفرداً بتصريف الأمور وحده، فلما عرض عليه عمر وجهة نظره استدعى زيد بن ثابت ليتعرف على رأيه .

٥- رأى زيد بن ثابت أن يستمسك باتباع النبى، وقد توفاه الله وهو مكتف بحفظ القرآن فى صحف مفرقة، وفى صدور أصحابه، وأن أى إجراء بعد هذا فى رأى زيد يعتبر مخالفة لما مات عنه النبى ﷺ .

٦ - فقه عمر لمعنى الاتباع، وأنه واجب إذا استمر الحال على ما كان عليه، فإذا وجد المقتضى لتعديل شىء وانتفى المانع كان التعديل هو روح الاتباع .

٧- اقتنع زيد واتفق الثلاثة على وضع الخطة لجمع القرآن، وأصدر الخليفة أمره إلى قوى أمين له خبرة فيما يناط به .

٨ - أدرك زيد خطر المهمة التى نيطت به، ونفذ بجدارة وأمانة، وجمع القرآن من أهله، وروى ما صادفه فى جمعه للآيتين من آخر سورة التوبة مما يؤكد أمانته الكاملة .

٩ - جمع زيد القرآن فى مصحف واحد، ووضعه فى أوثق يد، يد الحاكم المسئول عن رعيته، وكان المصحف يتحول إلى الحاكم الآخر، وظل كذلك ثلاثة عشر عاما، وتلك المدة تؤكد إقرار المسلمين لما جمعه زيد فى المصحف الموجود عند أبى بكر وعمر وحفصة أم المؤمنين وبنت عمر رضى الله عنهما .

١٠- كان يعاون زيد فى جمعه للقرآن خيرة الصحابة من أمثال سالم مولى حذيفة، وعمر بن الخطاب، وقد انتهج زيد فى جمع القرآن طريقة دقيقة محكمة وصفها له أبو بكر وعمر، فلم يكتف بما حفظ فى قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه، بل أخذ على نفسه أن يعتمد على مصدرين: ما كتب بين يدى رسول الله

ﷺ وما كان محفوظاً فى صدور الرجال، وبلغ من تَحوُّطِه وحذره أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله ﷺ .

مزايا مصحف أبى بكر :

* جمعه على أدق وجوه البحث والتحرى وأسلم أصول البحث العلمى.
* الاقتصار فيه على ما لم تنسخ تلاوته .
* إجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه .
* شموله للأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .

الطور الثالث: جمعه فى عهد عثمان رضى الله عنه .

فلما كان عهد عثمان رضى الله عنه اتسعت الفتوحات الإسلامية وتفرق القراء فى الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته ، ووجوه القراءة التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التى نزل عليها، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب بعضهم من وجوه هذا الاختلاف ، وقد يفضى ذلك إلى شيء من الملاحاة والتأثيم ، ثم لما كانت غزوة أرمينية وأذربيجان من أهل العراق كان فيمن غزاها حذيفة بن اليمان فرأى اختلافاً كثيرا فى وجوه القراءة ، وبعض ذلك مشوب باللحن مع استمساك كل بقراءته ، وربما أفضى الأمر إلى المماراة وتكفير بعضهم بعضا ، عندئذ فزع إلى عثمان رضى الله عنه ليتدارك الأمر ، وكان بدوره قد استشعر شيئاً من ذلك لدى من يقرئون الناشئة وخشى أن ينجم عنه شئ من التحريف والتبديل فأجمع أمره على نسخ الصحف الأولى التى كانت عند أبى بكر وجمع الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد ، فأرسل إلى حفصة فأرسلت إليه بتلك الصحف ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصارى وإلى عبد الله بن الزبير

وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث القرشيين فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف ، وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم .

ولنستمع إلى رواية البخارى فى الصحيح لقصة هذا الجمع الثالث فيما يرويه عن أنس ، فقد روى فى صحيحه عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

قال زيد: ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾**، فألحقناها فى سورتها فى المصحف أ. هـ

ونستخلص من هذا الحديث ما يأتى :

١- الاعتماد فى الجمع الثالث كان على الصحف التى جمعت فى عهد الصديق رضى الله عنه .

٢- الإضافة فى هذا الجمع تمثلت فى ترتيب السور، وجمع الناس على حرف واحد

ووضع رسم يحتمل القراءات التى قُرِء بها القرآن على لهجة قريش .

٣- أقر القرشيون الثلاثة ما كان قد جمعه زيد، وإن اختلفوا معه فى كيفية الكتابة، ورضى زيد أن يعدل رسمه إلى الرسم الموافق للسان قريش لأنه نزل بلغتهم

٤- وزعت المصاحف على الأمصار، وألغيت الصحف الخاصة المكتوبة برسم خاص لا يعرفه إلا الكاتب وقبيلته، واعتبرت المصاحف العثمانية هى المرجع لكل المسلمين

وقد كتبوا مصاحف متعددة لأن عثمان رضى الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار المسلمين وهى متعددة ، وكتبوها متفاوتة فى إثبات وحذف وبدل وغيرها لأنه رضى الله عنه قصد اشمالها على القراءات الصحيحة، وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً.

والخلاصة أن اللفظ الذى لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة، أما الذى تختلف فيه وجوه القراءات فإن كان رسمه محتملاً لأن يقرأ بكل هذه الوجوه فقد قضى الأمر وذلك نحو قوله تعالى ﴿ **فتبينوا** ﴾ [الحجرات: ٦] فإن هذه الكلمة عندما تجرد من النقط والشكل تصلح أن تقرأ أيضاً ﴿ **فتثبتوا** ﴾ ونحو قوله تعالى ﴿ **ننشزها** ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، فإنها عند خلوها من النقط والشكل تحتمل قراءة ﴿**ننشرها**﴾ .

أما ما كان رسمه رغم خلوه من النقط والشكل لا يدل على أكثر من قراءة فكانوا يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه فى مصحف ورسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى فى مصحف آخر، نحو قوله تعالى ﴿ **ووصى بها إبراهيم** ﴾ [البقرة: ١٣٢] فإنها تكتب هكذا فى مصحف وتكتب فى مصحف آخر ﴿ **وأوصى بها إبراهيم** ﴾ لإثبات هذه القراءة، ونحو قوله تعالى ﴿ **تجرى تحتها الأنهار** ﴾ [التوبة : ٨٩] فإنها تكتب هكذا فى مصحف وتكتب فى مصحف آخر ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ لإثبات هذه

القراءة على أن هذه القراءات جميعا ترجع إلى لهجة قريش .

٦- الآية التى سقطت من سورة الأحزاب ووجدها زيد عند خزيمة الأنصارى كانت موجودة فى مصحف الصديق وسقطت من النساخ فى عهد عثمان ودونت فى مصحفه والمصاحف التى وزعت على الأمصار سنة خمس وعشرين .

٧- ومعنى قول زيد : «فوجدتها عند خزيمة» أى فى الموضع الذى أراد أى يضعها فيه من سورة الأحزاب، ووجودها عند خزيمة فى نفس الموضع الذى روى زيد سماعها من النبى ﷺ، يؤكد دقة سماع زيد رضى الله عنهم جميعا.

ومن هنا نتبين أن التدوين بدأ من عهد النبوة، وأن الجمع الثالث يختلف عن الجمع الثانى فى أنه رتب السور وجمع الناس على رسم واحد يحتمل اللهجات العديدة، وكان كل جمع بحضور عدد يتأكد به التواتر ثم ينعقد الإجماع على ما فعلوه .

ويقال : إن مصاحف عثمان أرسلت إلى مكة، وإلى الشام، وإلى اليمن وإلى البحرين، وإلى البصرة، وإلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحدا .

الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان :

يتبين مما سبق أن جمع القرآن فى عهد أبى بكر كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته فى مصحف واحد مرتب الآيات، وكان سبب الجمع موت الحفاظ، وأما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذى جمع فى عهد أبى بكر لترسل إلى الآفاق الإسلامية، وذلك بعد ترتيب السور والاقتصار على رسم واحد يحتمل القراءات العديدة، وكان السبب فى هذا الجمع إنما هو اختلاف القراء فى قراءة القرآن .

٣ ترتيب الآيات في السور توقيفي

وترتيب الآيات فى السور توقيفى لا مجال للاجتهاد فيه، فقد انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذى نراه اليوم بالمصاحف كان بتوقيف من النبى ﷺ، وأنه لا مجال فيه للرأى والاجتهاد، بل كان جبريل ينزل بالآيات على رسول الله ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها فيقرأها النبى ﷺ على أصحابه كذلك، ويأمر كتاب الوحى بكتابتها فى موضعها، وقد انعقد الاجماع على ذلك تاماً لا ريب فيه، ومن الأدلة التى استند إليها هذا الإجماع مايلى:

- ما ثبت فى السنن الصحيحة من قراءة النبى ﷺ بسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء، وقراءته لسورة الأعراف فى صلاة المغرب، والمؤمنون والروم فى صلاة الصبح، والسجدة والإنسان فى صبح الجمعة، كان يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذى فى المصحف على مرأى ومسمع من الصحابة، فلو لم تكن آياتها مرتبة فكيف كان يقرأ ؟

- وما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب قال: ما سألت النبى ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال: « يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » فقد دله على موضع تلك الآية من سورة النساء.

- وما رواه أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى** ﴾ [النحل : ٩٠] .

٤ الخلاف فى ترتيب السور

اختلف أهل العلم فى ترتيب السور على ثلاثة أقوال:

* **الأول** : أن ترتيب السور كان باجتهاد موفق من الصحابة ولم يكن عن توقيف من النبى ﷺ مستدلين على ذلك بما يلى:

ـ ما كان بين مصاحف الصحابة من اختلاف فى ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن فى عهد عثمان، ولو كان ترتيب السور توقيفيا لما جاز لهم أن يهملوه ويتجاوزوه.

ـ وبما ورد من أن عثمان جعل سورة الأنفال وسورة التوبة فى السبع ولم يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، ولما سأله ابن عباس عن ذلك قال: كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما. رواه أحمد والترمذى والنسائى .

* **الثانى** : أن ترتيب السور كلها توقيفى كترتيب الآيات، مستدلين على ذلك بما يلى :

ـ إجماع الصحابة على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان، وعدولهم عن مصاحفهم وإحراقها، ولا يكون ذلك إلا إذا كان هذا الترتيب الذى أجمعوا عليه توقيفيا .

ـ كما استدلوا على ذلك أيضا بأن السور المتجانسة فى القرآن لم يلتزم فيها الترتيب، فسور المسبحات لم يلتزم فيها الترتيب، بل فصل بينها بسورة المجادلة والممتحنة والمنافقين رغم افتتاحهما جميعا بتسبيح الله، وفصل بين الشعراء والقصص

بسورة أقصر منهما وهى النمل رغم تماثلهما فى الابتداء، ولو كان ترتيب السور اجتهاديا للوحظ مكان هذا التجانس والتماثل .

* **الثالث** : أن ترتيب بعض سور القرآن توقيفى وترتيب بعضها الآخر اجتهادى جمعا بين هذه الأدلة المتعارضة.

وأيا كان الأمر فإنه يجب احترام هذا الترتيب فى كتابة المصاحف لأنه من إجماع الصحابة ، ولما تجر إليه مخالفته من الفتنة ، ودرء الفتنة وسد الذرائع واجبان ، أما ترتيب السور فى التلاوة فمندوب وليس واجبا بلا نزاع .

٥ تسمية السور

لا نعلم نصا صحيحا عن رسول الله ﷺ يدل على تسمية السور جميعها، ولكن ورد فى بعض الأحاديث الصحيحة تسمية بعضها من النبى ﷺ كالبقرة وآل عمران، أما بقية السور فالأظهر أن تسميتها من الصحابة رضى الله عنهم .

٦ الرسم العثماني

للعلماء فى التزام الرسم العثمانى للمصحف ثلاثة آراء :

- **الأول** : أنه توقيفى لا تجوز مخالفته ، واستدلوا بإقرار النبى ﷺ لهذا الرسم ، وإجماع الصحابة عليه ، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك فى عهد التابعين والأئمة المجتهدين ، وقد روى السخاوى أن مالكا سئل : أرأيت من استكتب مصحفا أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم ؟ فقال : لا أرى ذلك ، ولكن يكتب

على الكيفية الأولى ، وقال أبو عمرو الداني : لا مخالف لمالك من علماء الأمة في ذلك .

– **الثـاني :** أن رسم المصاحف اصطلاحي وليس توقيفيا ، فتجوز مخالفته ، وذلك لأن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت، ولم يرد دليل صحيح على وجوب رسم بعينه، بل ربما دلت السنة على خلاف ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجها معينا، ولا نهى أحداً عن كتابته ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال .

– **الثـالث :** يجوز كتابة المصحف للعامة على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم لئلا يؤدى التزام الرسم العثمانى لهم إلى تغيير وخلط من قبل الجهال مع المحافظة على الرسم العثمانى فى أيدى العارفين كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن السلف الصالح ، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين، ولعل هذا الرأى أولى بالاعتبار .

ويستحب كتابة المصحف وتحسين كتابته وتبيينها وإيضاحها وتحقيق الخط دون مشقة وعلى أن لا يُستغرَق فى ذلك ، فإن أحسن ما زين به كتاب الله حسن تدبره والحرص على العمل بما فيه ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه : « إن أحسن مازين به المصحف تلاوته بالحق » .

٧ إعجام المصحف

إعجام الكتاب نقطه ، ومن المعروف أن المصحف العثمانى لم يكن منقوطا ولا مشكلا وذلك اعتمادا على السليقة العربية السليمة التى لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجام بالنقط من ناحية وإبقاء للكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها من ناحية أخرى .

وقد اختلف العلماء فى أول جهد بذل فى هذا الصدد :

- فمنهم من يرى أن أول من فعل ذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأمر عبد الملك بن مروان حين كثرت التصحيفات وانتشرت فى العراق ففكر ولاة الأمر فى النقط والتشكيل .

- ومنهم من ينسب هذا الأمر إلى أبى الأسود الدؤلى .

- ويجمع بعض الباحثين بين الرأيين بأن أبا الأسود الدؤلى أول من نقط المصحف ولكن بصفة فردية، وأن عبد الملك أول من نقط المصحف بصفة رسمية عامة فذاعت وشاعت بين الناس .

٨ شبه مردودة

كان القرآن ولا يزال هدفاً لأعداء الإسلام يسددون إليه السهام والمطاعن لتوهين الثقة فى هذا الكتاب الذى لا تعرف الدنيا بأسرها كتاباً سلم من التحريف والتبديل سواه.

وأهم الشبه التى أثاروها - وهى أوهى من بيت العنكبوت - ما يلي:

١ – زعمهم أن النصوص قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شيء لم يكتب في المصاحف التي بين أيدينا اليوم.

ومن هذه النصوص التي بنوا عليها هذا الزعم :

أ– ما جاء في الصحيحين عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد فقال : يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية من سورة كذا، كنت أسقطتهن» وفي رواية « أنسيتهن» والحديث في الصحيحين بألفاظ متقاربة .

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول ﷺ بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسيانا لا يشكل في جمع القرآن، فإن الرواية التي جاء فيها التعبير بالإسقاط تفسرها الرواية الأخرى «كنت أنسيتها» وهذا يدل على أن المراد بإسقاطها نسيانها، كما يدل عليه لفظ «أذكرني» والنسيان جائز على رسول الله ﷺ فيما لا يخل بالتبليغ، وكانت هذه الآيات قد حفظها رسول الله، واستكتبها كتاب الوحي، وحفظها الصحابة في صدورهم، وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر، فنسيان الرسول ﷺ لها بعد ذلك لا يؤثر في دقة جمع القرآن، وهذا هو غاية ما يدل عليه الحديث، ولذا كانت قراءة هذا الرجل – وهو أحد الحفظة الذين يبلغ عددهم حد التواتر – مذكرة لرسول الله ﷺ «لقد أذكرني كذا وكذا آية» .

ب – الاستثناء الوارد في سورة الأعلى في قوله تعالى ﴿ **سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله**﴾ [الأعلى: ٦] فإنه يدل بزعمهم على أن رسول الله ﷺ أنسى بعض الآيات.

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى قد وعد رسوله بإقراء القرآن وحفظه وأمنه من النسيان في قوله ﴿**سنقرئك فلا تنسى**﴾ ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك، والله تعالى فاعل مختار ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ [الأنبياء: ٢٣] جاء الاستثناء ﴿ **إلا ما**

شاء الله﴾ للدلالة على أن هذا الإخبار بإقراء الرسول القرآن وتأمينه من النسيان ليس خارجا عن إرادته تعالى، فإنه سبحانه لا يعجزه شيء، فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم من الله وسعة جوده، لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

والذى يدل على أن هذا هو المراد بهذا الاستثناء وأنه صورى لا حقيقى أمران :

– **أحدهما :** ما جاء فى سبب النزول وهو أن النبى ﷺ كان يتعب نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحى ، مخافة أن ينساه ويفلت منه؛ فاقتضت رحمة الله بحبيبه أن يطمئنه من هذه الناحية ، وأن يريحه من هذا العناء، فنزلت هذه الآية ، كما نزلت آية : **﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾** [القيامة: ١٦، ١٧] وآية: **﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علماً﴾** [طه: ١١٤].

– **ثانيهما :** أن قوله تعالى: **﴿ إلا ماشاء الله ﴾** [الأعلي: ٧] يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إياه ؛ والمشيئة لم تقع بدليل ما مر بك من نحو قوله : **﴿ إن علينا جمعه وقرآنه﴾**. وإذن فالنسيان لم يقع للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق .

وهذا إذا أريد بالنسيان المحو التام من الذاكرة ، أما إذا أريد به مجرد غيبة الذهن فقد سبق أن هذا لا يقدح فى مقام الرسالة ، ولا يقدح فى قرآنية الآية ما دامت الآية محفوظة فى صدور الصحابة، ومكتوبة بواسطة كتاب الوحى، وقد بلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر.

وثمة وجه آخر فى معنى الاستثناء وهو أن المراد به منسوخ التلاوة دون غيره، فيكون معنى الآية أن الله يقرئ نبيه فلا ينسيه إلا ما شاءه وهو ما نسخت تلاوته

لحكمة من الحكم التى بينها العلماء فى مبحث النسخ.

٢- وزعموا : أن فى القرآن ما ليس منه.

واستدلوا على ذلك بما يلى:

ـ ماروى من أن ابن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن!

ويجاب على ذلك بأن ما نقل عن ابن مسعود رضى الله عنه لم يصح، وهو مخالف لإجماع الأمة ، قال النووى فى شرح المهذب « وأجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد شيئاً منها كفر ، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع» بل صح عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم وفيها المعوذتان والفاتحة ، وعلى فرض صحته فالذى يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبى ﷺ فتوقف فى أمرهما، وإنما لم ينكر ذلك عليه لأنه كان بصدد البحث والنظر ، والواجب عليه التثبت فى هذا الأمر ، فلما تبين له قرآنيتهما كان فى مقدمة من آمن بأنهما من القرآن.

وإنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر، ومثل هذا يجاب به على ما قيل من أن مصحف ابن مسعود قد أسقطت منه الفاتحه، فإن الفاتحة هى أم القرآن ولا تخفى قرآنيتها على أحد.

ـ ومن احتجاجهم على هذه الشبهة الفاسدة ما زعموا من أن ما كان مكتوبا من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ولا مضبوط ، وقد ضاع بعضه !!

وينقض هذه الفرية ما أثبتناه آنفا فى جمع القرآن من أن ترتيب آياته كان توقيفيا، وأن الرسول ﷺ كان يقرئها أصحابه كذلك، ويحفظها الجميع، ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو ؛ حتى صار ترتيب القرآن وضبط آياته معروفاً

مستفيضاً بين الصحابة حفظاً وكتابة ، ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن ، مرتب الآيات كذلك فى كل رقعة أو عظمة ، وإن كانت العظام والرقاع منتشرة وكثيرة مبعثرة ، على أننا قررنا غير مرة أن التعويل كان على الحفظ والتلقى قبل كل شيء ، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده ؛ فلا جرم كان فى الحفظ والكتابة معاً، ضمان للنظام والترتيب والضبط والحصر .

وأما قولهم فى الاحتجاج : (وقد ضاع بعضها)!! فيظهر أنهم استندوا فى ذلك إلى ما ورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة فلم يجدوها إلا عند خزيمة بن ثابت؛ فظن هؤلاء أن هذا اعتراف منهم بضياع شيء من مكتوب القرآن ، وليس الأمر كما فهموا ؛ بل المعنى أن الصحابة لم يجدوا تلك الآية مكتوبة إلا عند خزيمة بخلاف غيرها من الآيات ، فقد كانت مكتوبة عند عدة من الصحابة ؛ ومع ذلك فقد كان الصحابة يقرأونها ويحفظونها ويعرفونها بدليل قولهم : فقدت آية ، وإلا فما أدراهم أنها فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها ؟

٣- ويزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان حرفوا القرآن وأسقطوا بعض آياته وسوره ، فحرفوا لفظ ﴿ **أمّة هى أربى من أمة** ﴾ [النحل: ٩٢] والأصل (أئمة هى أزكى من أئمتكم) وأسقطوا من سورة الأحزاب آيات فضائل أهل البيت وقد كانت فى طولها مثل سورة الأنعام !! وأسقطوا سورة الولاية بتمامها من القرآن!!

ويجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها ودعاوى لا بينة عليها، والكلام فيها حمق وسفاهة، وقد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السخف، والمنقول عن على رضى الله عنه الذى يدعون التشيع له يناقضه ، ويدل على انعقاد الإجماع بتواتر القرآن الذى بين دفتى المصاحف، فقد أثر عنه أنه قال فى جمع أبى بكر «أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » .

وقال في جمع عثمان « يا معشر الناس ، اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان، وقولكم : حراق مصاحف ، فو الله ما حرقها إلا عن ملإ منا أصحاب رسول الله ﷺ وقال : لو كنت الوالى وقت عثمان فعلت فى المصاحف مثل الذى فعله عثمان » .

فهذا الذى أثر عن على نفسه يقطع ألسنة أولئك المفترين الذين يزعمون نصرته فيهرفون بما لا يعرفون تشيعاً له وهو منهم براء [انظر مناهل العرفان والاتقان ومباحث فى علوم القرآن للأستاذ مناع القطان] .

ماذا يفعل بالمصحف إذا بلى أو تمزق من كثرة الاستعمال أو وجدت به بعض الأغلاط المطبعية ؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه.. وبعد:

إذا بليت أوراق المصحف وتمزقت من كثرة القراءة فيها مثلاً، أو أصبحت غير صالحة للانتفاع بها، أو عثر فيها على أغلاط من إهمال من كتبها أو طبعها ولم يمكن إصلاحها جاز دفنها بلا تحريق، وجاز تحريقها ثم دفنها بمكان بعيد عن القاذورات ومواطىء الأقدام، صيانة لها من الامتهان وحفظاً للقرآن من أن يحصل فيه لبس أو تحريف أو اختلاف بانتشار المصاحف التى طرأت عليها أغلاط فى كتابتها أو طباعتها ، وقد ثبت فى باب جمع القرآن من صحيح البخاري أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أمر أربعة من خيار قراء الصحابة بنسخ مصاحف من المصحف الذى كان قد جمع بأمر أبى بكر رضى الله عنهم فلما فرغوا من ذلك أرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة ومصحف أن يحرق، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة إلا ما روى عن ابن مسعود، لكنه إنما أنكر قصر الناس على المصحف الذى أرسل به عثمان إلى الآفاق ولم ينكر التحريق [فتاوى اللجنة الدائمة: ٤/١٠٠] .

*** المراد بجمع القرآن :**

أ- حفظه فى الصدور .

ب- كتابته كله فى صحائف مجتمعة .

*** أطوار جمع القرآن :**

وقد مر ذلك الجمع بثلاثة أطوار :

- **الطور الأول** : جمعه فى عهد النبى ﷺ : ومعناه التدوين ، ووضع الآيات التى تأخر نزولها فى مكانها من السور .

- **الطور الثانى** : جمعه فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه : جمع للقرآن كله فى مصحف واحد مشتملاً على الأحرف السبعة .

- **الطور الثالث** : جمعه فى عهد عثمان رضى الله عنه : نسخ الصحف الأولى التى كانت عند أبى بكر ، وجمع الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد .

* ترتيب الآيات فى السور توقيفى وقد أجمعت الأمة على ذلك .

*** اختلف العلماء فى ترتيب السور على ثلاثة أقوال :**

١ - كان باجتهاد موفق من الصحابة .

٢- هو توقيفى كترتيب الآيات .

٣- بعضه توفيقى وبعضه اجتهادى .

وأياً كان الأمر فإنه يجب احترام هذا الترتيب فى كتابة المصاحف لأنه إجماع الصحابة .

* **تسمية السور :** بعضها توقيفى وبعضها اجتهاد من الصحابة .

* الرسم العثمانى فى كتابة المصاحف :

لأهل العلم فيه ثلاثة آراء :

١- توقيفى لا تجوز مخالفته .

٢- اصطلاحى ليس توقيفياً ، فتجوز مخالفته .

٣- يجوز كتابته للعامة على الاصطلاحات المعروفة مع المحافظة على الرسم العثمانى فى أيدى العارفين .

* إعجام المصحف :

هو نقطه لتسهيل ضبط الكلمات على غير أهل الجزيرة العربية وقد اختلف فى تعيين أول من قام بذلك .

* أثيرت شبه حول آيات القرآن بنفى ما هو منه وإثبات ما ليس منه ، وهى شبه أوهى من بيت العنكبوت ، تدحضها الأدلة والروايات الثابتة .

* أفتى العلماء بجواز حرق المصحف ودفنه إذا بلى أو تمزق أو وجدت به بعض الأخطاء المطبعية .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص ٢٣١ - ٤٠٤ .

٢- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ١١٨ - ١٥٥ .

٣- التبيان فى علوم القرآن للصابونى ص ٥٣ - ٦٨ .

٤- مباحث فى علوم القرآن لصبحى صالح ص ٦٥ -١٠٠ ، ٢٧٥ -٢٨٠ .

١٠ أسئلة التقويم الذاتي

س١ ما المراد بجمع القرآن ؟

س٢ اذكر الأطوار التى مر بها جمع القرآن وخصائص كل منها .

س٣ ترتيب الآيات والسور ، وتسمية السور ، وكتابة المصحف بالرسم العثمانى ، هل هى أمر توقيفية أم اجتهادية ؟ فصّل مع ذكر الأدلة على ما تقول .

س٤ ما معنى إعجام المصحف ؟ ومتى تم ذلك ؟ وما هى الحكمة من ورائه ؟

س٥ اذكر الشبهات التى أثيرت حول جمع القرآن ، وبين كيف ترد عليها ، مع ذكر أدلتك .

س٦ ماذا يفعل بالمصحف إذا بلى أو تمزق من كثرة الاستعمال أو وجدت به بعض الأغلاط المطبعية ؟



القراءات والقراء

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملما بما يلي :

[١] تعريف القراءات ومعرفة نشأتها .

[٢] سبب اشتهار الأئمة السبعة أكثر من غيرهم .

[٣] أول من صنف في القراءات .

[٤] متي اشتهرت القراءات السبع ومتي دونت ؟

[٥] الضابط العلمي لاعتماد القراءات .

[٦] فوائد الاختلاف في القراءات .

المحتويات

١- تعريف القراءات ومعرفة نشأتها .

٢- أول من صنف في القراءات .

٣- الضابط العلمي لاعتماد القراءات .

٤- فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة .

١ تعريف القراءات ومعرفة نشأتها

القراءات جمع قراءة ، وهى فى الاصطلاح العلمى: مذهب من مذاهب النطق فى القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهبا يخالف غيره، وهى ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ.

ويرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم فى التلاوة إلى عهد الصحابة، فقد اشتهر بالإقراء منهم: أبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود وأبو موسى الأشعرى وغيرهم، وأخذ عنهم خلق كثير من الصحابة والتابعين فى كل مصر من الأمصار.

وفى عهد التابعين على رأس المائة الأولى تجرد قوم لهذا الأمر واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة، وجعلوها علما كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى، وصاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم، واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التى تلتهم الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات اليوم وهم:

١- نافع بن نعيم ت : ١٦٩ .

٢- عبد الله بن كثير ت : ١٢٠ .

٣- عبد الله بن عامر ت : ١١٨ .

٤- وعاصم بن بهدلة الأسدى ت : ١٢٨ .

٥- وحمزة بن حبيب الزيات ت : ١٥٦ .

٦- وعلى بن حمزة الكسائى ت : ١٨٩ .

٧- وأبو عمرو بن العلاء ت : ١٥٤ .

سبب اشتهار الأئمة السبعة أكثر من غيرهم :

وليس انحصار الأئمة الذين اعتمدوا إذ ذاك في ضبط القراءات في السبع دليلاً على أن القراءات المتعددة فيما تعددت القراءة فيه من ألفاظ النبي عليه الصلاة والسلام وتابعه فيها الصحابة كنسب محصورة في سبع ولا عشر، ولكن سبب اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم ـ كما يقول أبو محمد مكيّ وغيره ـ أن عثمان رضي الله عنه كتب المصاحف ووجهها إلى الأمصار، وكان القراء في العصر الثاني والثالث كثيري العدد، فأراد الناس أن يقتصروا في العصر الرابع على ما وافق المصحف، فنظروا إلى إمام مشهور بالفقه والأمانة في النقل وحسن الدين وكمال العلم، قد طال عمره واشتهر أمره وأجمع أهل كل مصر على عدالته، فأفردوا من كل مصر وجّه إليه عثمان مصحفاً إماماً هذه صفة قراءته على مصحف ذلك المصر، فكان أبو عمرو من أهل البصرة، وحمزة وعاصم من أهل الكوفة وسوادها ، والكسائي من أهل العراق، وابن كثير من أهل مكة ، وابن عامر من أهل الشام ، ونافع من أهل المدينة كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم في الإقراء، وارتحل الناس إليهم من البلدان [راجع هذه الفقرة في البرهان للزركشي ١/٣٢٩] .

وعن كل إمام من الأئمة السبعة راويان: فعن نافع : قالون وورش، وعن ابن كثير البزي وقنبل، وعن أبي عمرو : الدوري والسوسي، وعن ابن عامر : هشام وابن ذكوان، وعن عاصم : أبو بكر بن عياش وحفص، وعن حمزة : خلف وخلاد، وعن الكسائي : الدوري وأبو الحارث .

ولا تعني شهرة هؤلاء الأئمة السبعة انحصار القراء فيهم أو انحصار القراءة المقبولة فيما نقل عنهم، بل كل قراءة توافرت فيها ضوابط القبول على النحو الذى سيأتي ذكره فهي مقبولة، ومن هنا كانت القراءات العشر بزيادة قراءات يعقوب وأبي جعفر وخلف على قراءات أولئك السبعة، وكانت القراءات الأربع عشرة بزيادة قراءات الحسن البصري وابن محيض ويحيي اليزيدي والشنبوذي على قراءات أولئك العشرة .

٢ أول من صنف في القراءات

أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم أحمد بن حبير الكوفى، ثم إسماعيل بن إسحاق المالكى، ثم أبو جعفر بن جرير الطبرى، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجوتى ثم صنف طبقاتهم : أبو عبد الله الذهبى، ومن بعده أبو الخير الجزرى .

وقد ألف الإمام الشاطبى فى القراءات كتابا منظوماً ذكر فيه ما يتعلق بالقراءات السبع سّماها الشاطبية. ولا تزال تدرس الشاطبية فى معاهد مصر التابعة للأزهر.

متى اشتهرت القراءات السبع ومتي دونت ؟

اشتهرت هذه القراءات فى الأمصار الإسلامية على رأس المائتين، فكان الناس فى البصرة على قراءة أبى عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر ، وبمكة على قراءة ابن كثير وبالمدينة على قراءة نافع ودونت فى نهاية القرن الثالث على يد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس فجمع قراءات هؤلاء السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائى وحذف يعقوب.

٣ الضابط العلمي لاعتماد القراءات

وإنما اعتمد العلماء قراءات هؤلاء الأئمة السبعة والثلاثة المتممة للعشرة وهى: قراءة يعقوب، وأبى جعفر، وخلف بناء على ضابط علمى كان هو الأساس فى قبولهم لها واعتمادهم إيّاها من أين جاءت وإلى من نسبتْ .

والضابط كما يقول ابن الجزرى فى أول كتابه « النشر» هو أن كل قراءة تواتر سندها إلى رسول الله ﷺ ووافقت خط المصحف العثمانى ولو احتمالاً، ووافقت العربية بوجه من الوجوه المعتبرة فتلك هى القراءة الصحيحة التى لايجوز ردها ولا يّحل

إنكارها، سواء نقلت عن الأئمة السبعة أو العشرة، ومالم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاث فهى شاذة مردودة لا يقرأ بها أياً كان الإمام الذى نقلت عنه .

يقول أبو شامة: (لا ينبغى أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى أحد السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا دخلت فى ذلك الضابط، وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة ، فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه، فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه فى قراءاتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم) .

فالشرط الأول التواتر ، والقاعدة أن القرآن يوجب العقل تواتره ، لأن الدواعى تتوافر على نقل الشىء إما لغرابته أو لفرط أهميته، والقرآن كله متواتر منقول بواسطة سلسلة من الجموع التى يؤمن تواطؤها على الكذب عن طريق كل من الكتابة والمشافهة .

والمقصود بموافقة القراءة لخط المصحف العثمانى ولو احتمالاً، أن تكون أصول الكتابة والرسم التى كتب بها المصحف العثمانى مما يحتمل القراءة ويقبلها بوجه من الوجوه ولو تقديراً كقوله تعالى : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ [الفاتحة: ٤] ﴿ **وملك يوم الدين** ﴾ ورسم المصحف مما يحتمل لقراءة القصر (ملك) والمد (مالك) إذ أن حذف المد مما تحتمله أصول الرسم .

والمراد بموافقه العربية ولو بوجه أن تكون القراءة سائغة فى النحو نحو قوله تعالى: ﴿ **لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة** ﴾ [النساء: ١٦٢] فيمكن حمل المقيمين على أنه منصوب

بفعل تقديره أمدح .

وقد نظم هذا الضابط صاحب الطيبة فقال:

وكل ما وافق وجه النحو ... وكان للرسم احتمالا يحوى

وصح إسنادا هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

وحينما يختل ركن أثبت ... شذوذه لو أنه فى السبعة

فكل قراءة توافرت فيها أركانها الثلاثة منكرها كافر، وأما ما صح نقله عن الآحاد ووافق العربية لكن خالف الرسم العثمانى فيقبل ولا يقرأ به، ويحتج به على أنه رواية، كقراءة عبد الله بن مسعود رضى الله فى كفارة اليمين : (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) .

وأما ما نقله الثقة ولا حجة له فى العربية، أو نقله غير الثقة وله حجة فى العربية - فهذان لا يقبلان ولا يقرأ بهما وإن وافقا الرسم العثمانى .

والقراءات العشر لا تخرج عن كونها متواترة أو مشهورة شهرة قد تفوق التواتر .

وإذا ثبت تواترا ألفاظ القرآن إلى أئمة القراءات، ومنهم إلينا ثبت كذلك تواتر كيفية أدائه من مد ، وغن ، وتحقيق ، وتسهيل ، وغير ذلك من أحكام تناولها علماء التجويد بالتفصيل والإيضاح .

٤ فوائد الاختلاف فى القراءات الصحيحة

لاختلاف القراءات الصحيحة فوائد، منها :

أ - الدلالة على صيانة كتاب الله عز وجل وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

ب ـ التخفيف على الأمة وتسهيل القراءة عليها.

جـ ـ إظهار فضل هذه الأمة وقد أنزل الله إليها الكتاب على أكثر من وجه .

د ـ إفساح المجال للاجتهاد واستنباط الأحكام والمعانى، فإن من المعلوم أن تعدد القراءة فى الآية الواحدة ينبنى عليه اختلاف النظر فى الحكم الفقهى، فمن يرى نقض الوضوء بلمس المرأة لاحتمال ذلك فى قوله تعالى ﴿ **أو لامستم النساء** ﴾ [النساء: ٤٣] فإنه يمكنه أن يرجح هذا القول بقراءة ﴿ **أو لمستم**﴾ بدون ألف بعد اللام، ومن اشترط الإيمان فى الرقيق الذى يعتق كفارة يمين يمكن أن يستدل بقراءة ﴿**أو تحرير رقبة مؤمنة**﴾ .

هـ ـ المبالغة فى إعجازه بإيجازه إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعى دون تكرار اللفظ كقراءة: ﴿**وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين**﴾ [المائدة: ٦] بالنصب والخفض فى ﴿**وأرجلكم**﴾ ، ففى قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل حيث تكون معطوفة على المغسولات، وفى قراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين حيث تكون معطوفة على الممسوح وهو الرأس، فيستفيد الحكمين من غير تطويل، وذلك ضرب من ضروب البلاغة، ويبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهى إلى كمال الإعجاز ، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدة لم يخف ما فى ذلك من التطويل .

و ـ جعل بعض القراءات بيانا لما أجمل فى القراءة الأخرى كقراءة (يطهرن) فى قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف، فقراءة التشديد مبيِّنة لمعنى قراءة التخفيف عند الجمهور، فالحائض لا يحل وطؤها لزوجها بالطهر من الحيض أى بانقطاع الدم حتى تتطهر بالماء .

٥ الخلاصة

* **القراءة :** مذهب من مذاهب النطق فى القرآن ، يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره ، وهى ثابتة بالأسانيد إلى رسل الله ﷺ .

* يرجع عهد القراء إلى عهد الصحابة .

* اشتهار الأئمة السبعة لا يعنى انحصار القراءات فى سبع .

* **أول من صنف فى القراءات :** (أبو عبيد بن سلام) واشتهرت القراءات السبعة ودونت على رأس المائتين .

* **الضابط العلمى لاعتماد القراءات :**

١- تواتر السند إلى رسول الله ﷺ .

٢- موافقة خط المصحف العثمانى ولو احتمالاً .

٣- موافقة العربية بوجه من الوجوه المعتبرة .

* **فوائد الاختلاف فى القراءات :**

١- الدلالة على صيانة الله عز وجل لكتابه .

٢- التخفيف على الأمة .

٣- إظهار فضل هذه الأمة وقد أنزل الله إليها الكتاب على أكثر من وجه .

٤- إفساح المجال للاجتهاد واستنباط الأحكام والمعانى .

٥- المبالغة فى الإعجاز بالإيجاز .

٦- بيان بعض القراءات لما أجمل فى القراءات الأخرى .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص ٤٠٥ - ٤٧٠ .

٢- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ١٧٠ - ١٩٥ .

٣- التبيان فى علوم القرآن للصابونى ص ٢٤٩ - ٢٥٨ .

٤- مباحث فى علوم القرآن لصبحى صالح ص ٢٤٧ - ٢٥٨ .

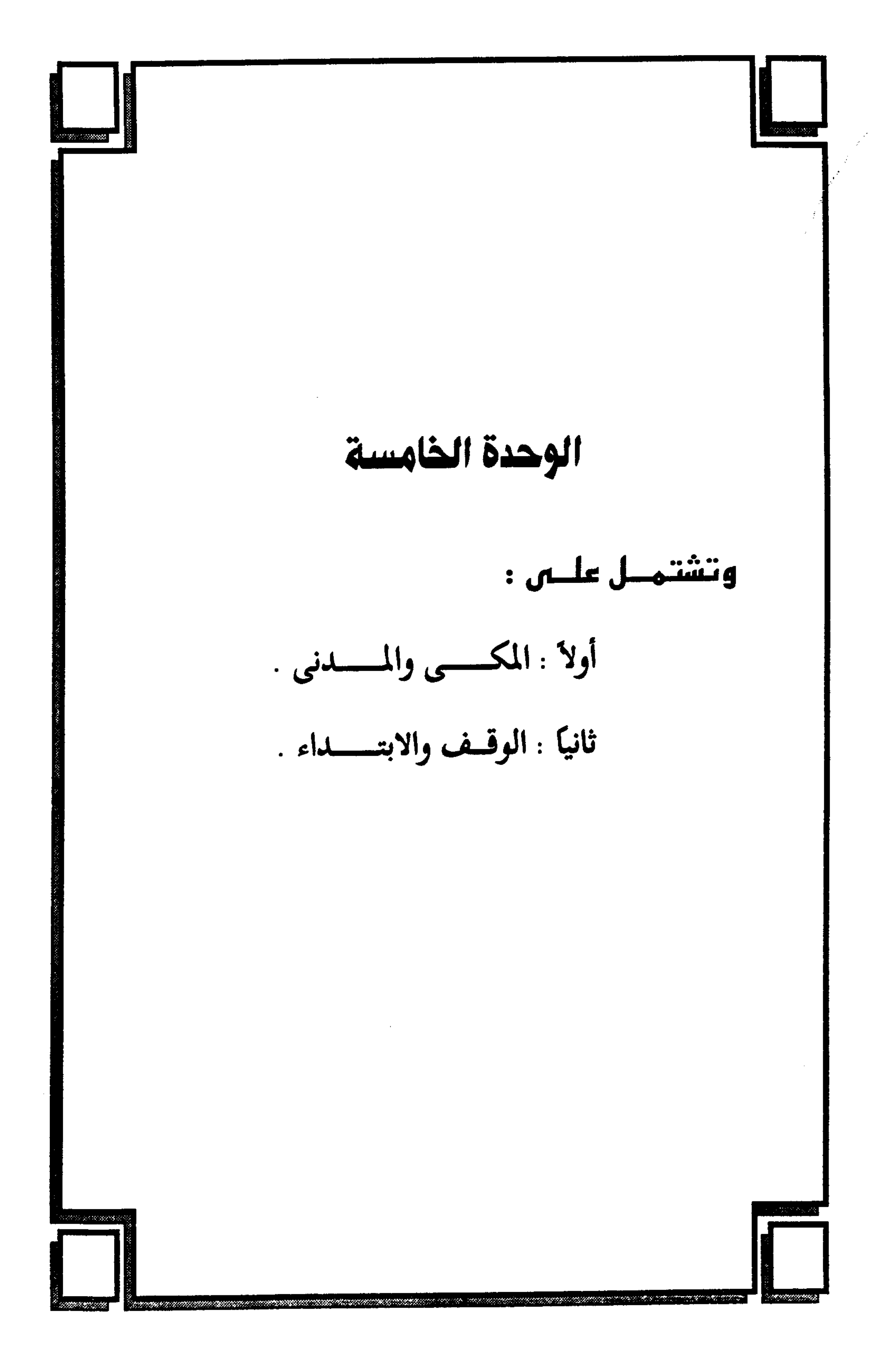
٦ أسئلة التقويم الذاتي

س١ عرف القراءات ، وبين تاريخ نشأتها كعلم .

س٢ اذكر أسماء الأئمة السبعة فى القراءات .

س٣ ما هو الضابط العلمى لاعتماد القراءات ؟

س٤ ما هى فوائد الاختلاف فى القراءات ؟



الوحدة الخامسة

وتشتمل على :

أولاً : المكي والمدني .

ثانياً : الوقف والابتداء .

أولاً المكي والمدني

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد قراءة هذه الوحدة أن تكون علي علم بما يأتي :

[١] تعريف المكي والمدني .

[٢] السبيل إلي معرفة المكي والمدني .

[٣] خصائص كل منهما .

[٤] الفائدة من معرفة هذا العلم .

[٥] الشبهات التي أثيرت حول المكي المدني ، وردها .

تمهيد

ينقسم القرآن في مجموعه إلي مكي ومدني ، وقد عني العلماء والرواة عناية كبري بتمييز هذين القسمين عن بعضهما ، واستخراج خصائص كل منهما ، لما يترتب علي ذلك من الفوائد التشريعية والتاريخية التي ستعلمها فيما بعد ، بل لقد عني الرواة والباحثون بتصنيف القرآن إلي ما نزل منه في النهار وما نزل في الليل ، وإلي ما نزل منه في الأسفار وما نزل منه في الحضر.

ونحن لن نتناول في بحثنا هذا حديث الليلي والنهاري أو الحضري والسفري من القرآن، لأنا نري أن فائدة ذلك في هذا المقام فائدة جزئية ضعيفة ، وإن كان البحث فيها ينبهنا إلي مدي اهتمام العلماء والرواة بالقرآن وإلي مدي خدمتهم ودراستهم له من شتي الجوانب المختلفة .

١ تعريف المكي والمدني

للعلماء ثلاثة اصطلاحات فى تعريف كل من المكى والمدنى .

أحدهما : أن المكى هو كل ما نزل بمكة والمدنى ما نزل بالمدينة ، سواء كان ذلك من قبل الهجرة أو من بعدها ، فالاعتبار على هذا الاصطلاح للمكان وحده .

والثانى : أن المكى ما وقع خطابا لأهل مكة والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة فالاعتبار على هذا للموضوع وحده .

والثالث : أن المكى ما نزل قبل الهجرة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة دون النظر إلى مكان النزول بالذات ، والاعتبار على هذا للزمان وحده.

وهذا الاصطلاح الثالث هو أشهر وأصح ما قيل فى هذا الموضوع .

وبناء على ذلك فإن كل ما نزل من القرآن من قبل هجرته ﷺ إلى المدينة يسمى مكيا سواء نزل فى مكة أوفى الطائف أو فى أى جهة أخرى، وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدنى، سواء نزل بالمدينة أو فى الأسفار والغزوات أو فى مكة فى عام الفتح

وقد نجد فى القرآن سوراً نزلت كلها قبل الهجرة كسورة (ق) ، و (هود) و (يوسف) وقد نجد فيه سوراً نزلت كلها بعد الهجرة كسورة (البقرة ، وآل عمران) وقد نجد فيه سوراً كلها مكية إلا بضع آيات منها ، نزلت بعد الهجرة كسورة الأنعام : كلها مكى إلا ست آيات منها فهى مدنية نزلت بعد الهجرة، وقد نجد سورا كل آياتها مدنية إلا بعض آيات منها فهى مكية كسورة الأنفال والتوبة .

٢ السبيل إلى معرفة المكي والمدني

ولعلك تسأل: كيف تسنى للعلماء أن يعرفوا تفصيل هذا الأمر وكيف أمكنهم أن يعلمـوا أن هذه الآية نزلت فى مكة والأخـرى بالمدينة ، وأن هذه نزلت فى الليل وتلك نزلت فى النهار ؟

والجواب : أن سبيل معرفة ذلك إنما هى الرواية الصحيحة الصادقة، وهى السبيل ذاتها التى وقف بها العلماء على تفسير القرآن بالمأثور كما مر بيانه، ومما سهل للعلماء ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم عنوا بالقرآن عناية فائقة عجيبة ، فكانوا يؤرخون كل آية بوقت نزولها ومكانها، وربما اتخذوا من الأماكن والجبال والمفاوز التى يعلمونها أماكن ذكرى ، بسبب آية أو آيات من القرآن قد نزلت فيها على رسول الله ﷺ.

روى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » .

وذكر الحافظ السيوطى فى كتابه الإتقان عن كتاب الحلية بسنده أن رجلاً سأل عكرمة رضى الله عنه عن آية من القرآن فقال : نزلت فى سفح ذلك الجبل ، وأشار إلى سلع [الإتقان : ١ - ٩] .

والخلاصة أن رواية ذلك كله نقلت إلينا بالطرق العلمية وحسب قواعد مصطلح الحديث، وبذلك وجد العلماء بين أيديهم ما أطلق عليه فيما بعد اسم (علم المكى والمدنى) .

٣ خصائص كل منهما

علمت عزيزى الدارس مما سقناه لك سابقا أن الآيات المكية من القرآن هى التى نزلت فى صدر الإسلام، وهى الفترة التى يحدها من الزمن ثلاثة عشر عاماً، أمضاها رسول الله ﷺ فى مكة معذبا مضطهداً، يقابل الإيذاء والاضطهاد بالصفح وبالمسالمة مع المضى فى الدعوة إلى الحق الذى أوحى إليه .

وعلمت أن الآيات المدنية ، هى التى نزلت من بعد الهجرة وهى الفترة التى يحدها من الزمن عشرة أعوام ، بنى فيها رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية . حيث تكاملت مقوماتها الإدارية والدستورية والقانونية، وعلى هذا فإنك تجد خصائص كل من القسمين، مستمدة من طبيعة هاتين المرحلتين التى عاشها النبى ﷺ قائما بأمر الدعوة .

فالآيات المكية تمتاز بواحد مما يلى :

١ – المناقشة والحجاج وعرض الأدلة على وجود الله ووحدانيته وعلى بعث الأجساد مع أرواحها من بعد الموت للحساب .

٢ – ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية ودعوة الناس إلى الاعتبار بهم ، إلا ما يتعلق بالحديث عن مريم وعيسى عليه الصلاة والسلام وقضية ولادته فقد نزل بعض ذلك فى المدينة محاججا لأهل الكتاب .

٣ – تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ودعوته إلى الصبر على الأذى تأسيا بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا لدعوة الناس إلى هذا الدين ذاته .

٤ – يغلب على الآيات المكية أن تكون قصيرة ذات وقع معين فى الأذن والنفس، تبعث على الرهبة والخشية، وتشعر بمعنى الجلال والجبروت كمعظم السور التى

تقرأها فى جزء تبارك وعم يتساءلون .

أما خصائص الآيات المدنية فهى ما يلى :

١- البحث فى الأحكام والتشريعات المتعلقة بالعبادات والمعاملات والحدود وغيرها

٢- الأمر بالجهاد والقتال والتعليق على الغزوات ، وما تعلق بها من شأن الغنائم والأسرى والمنافقين .

٣- البحث فى شؤون الحكم والشورى وضرورة الرجوع فيهما إلى الكتاب والسنة .

٤- يغلب على الآيات المدنية أن تكون طويلة فيها اللين والهدوء ووعد المسلمين بالفوز والصبر .

تلك هى خصائص الآيات المكية والمدنية، وأنت عزيزى الدارس تستطيع أن تميز بين السور المكية والمدنية بناء على معرفتك بتلك الخصائص، فحسبك أن تقرأ سورة البقرة وتطلع على ما فيها من أحكام الصيام والحج والطلاق والقصاص لتعرف أن سورة البقرة مدنية ، وحسبك أن تقرآ سورة (ق) وتقف على ما فيها من حجاج ونقاش مع المشركين لتعرف أن السورة مكية .

٤ الفائدة من معرفة هذا العلم

يتوقف على معرفة المكى والمدنى من القرآن الكريم كثير من الفوائد العلمية ، منها:

- معرفة ما قد يوجد فى القرآن من ناسخ ومنسوخ لنأخذ بالناسخ ونطرح المنسوخ (فى مجال الأحكام التشريعية) وإنما تتوقف معرفة ذلك على معرفة تاريخ النزول.

واعلم أن وجود الناسخ والمنسوخ فى القرآن والسنة اقتضته ضرورة أخذ الناس بالتدرج فى الأحكام الشرعية، والبعد بهم عن الطفرة فى تشريع الأحكام .

وليس معنى نسخ الحكم فى آيات القرآن أن قرآنيتها قد سقطت بذلك بل تظل قرآنا يتلى ويتعبد به وهى من كلام الله عز وجل ما لم تنسخ تلاوتها كذلك ، ولكن يبطل العمل بها لمكان الآية التى نسختها .

ثم إن علم الناسخ والمنسوخ علم خاص من علوم القرآن بحث وكتب فيه علماء أصول التفسير و أصول الفقه وسيأتى بعد ذلك مفصلاً .

– ومن فوائد ذلك أيضا تتبع مراحل الدعوة الإسلامية، والاطلاع على كيفية تكامل بنية الفكر والتصور الإسلامى، وهو ما يهم الباحثين فى تاريخ التشريع وأطواره.

– ومن فوائده أنه يبصر القارئ والمفسر بمعنى الآية ويحجزه عن الخطأ فى تفسيرها، ذلك أن من قرأ سورة ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ ولم يعلم زمن نزولها وهل هى مكية أم مدنية فإنه يحار فى معناها ، وقد يستخرج منها أن المسلمين لا يكلفون بالجهاد فى أى من الأحوال ، وإنما عليهم أن يقولوا دائما للآخرين : ﴿ **لكم دينكم ولى دين**﴾ . فإذا علم أن هذه السورة إنما نزلت فى مكة عندما قال بعض صناديد قريش لرسول الله ﷺ : تعال يا محمد نعبد إلهك يوما وتعبد إلهنا يوما ، إذا علم هذا أدرك أن هذه السورة إنما هى علاج لتلك المرحلة ، وأنها ليست دليلا على عدم مشروعية الجهاد الذى نزلت فيه آيات كثيرة أخرى فى المدينة .

٥ نقض الشبهات التي أثيرت حول موضوع المكي والمدني

لا يخفى أن أعداء القرآن كثيرون، وأنهم يتربصون به الدوائر، وينتهزون كل فرصة ليسدّدوا إليه سهام المطاعن، وإن من واجبنا أن نحمى العرين، ونقوم بواجب

الدفاع فى هذه المعمعة، ولن يتسنى ذلك عزيزى الدارس إلا إذا أعددنا العدة لذلك وتسلحنا بجميع الأسلحة وفى مقدمتها العدة العلمية ، وذلك بالدراسة المتأنية لعلوم القرآن بصفة عامة وما يثيره هؤلاء المبطلون من شبهات بصفة خاصة، وفيما يلي عرض ونقد لبعض هذه الشبهات فتأمل ذلك عزيزى الدارس وأعد للبلاغ عدته.

الشبهة الأولى :

زعمهم أن فى القرآن أساليب مختلفة تأثرت بالبيئة التى نزل فيها، وقد اعتمدوا فى هذه الفرية علي سلسلة من الدعاوي الكاذبة منها:

- زعمهم أنه استخدم العنف مع أهل مكة، واللين والمهادنة فى المدينة

والحق أن القرآن الكريم بقسميه المكى والمدنى قد اشتمل على الشدة والعنف واللين واللطف، لأن ضرورة التربية الرشيدة فى إصلاح الأفراد والشعوب وسياسة الأمم والدول، تقتضى أن يمزج المصلح فى قانون هدايته، بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشدة واللين .

فإن كان قد استخدم العنف رداً على أبى لهب فى قوله تعالي: ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾ [المسد: ١] فإنه قال فى سورة الشوري المكية أيضاً ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ [الشوري: ٤٣].وكما وجد فى الأسلوب المكى ذلك العنف فقد وجد أيضاً فى الأسلوب المدنى الذى يفترى على القرآن أنه هادنهم فيه، اقرأ فى سورة البقرة ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ [البقرة:٢٤] . وقال فيها أيضا : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس**﴾ [البقرة:٢٧٥] ، وقال فيها أيضا: ﴿**يا أيها آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩] .

وإذا كانت الشدة فى المكى أكثر منها فى المدنى فلأن أهل مكة بطبعهم كانوا شديدى المعارضة مسرفين فى العناد والإباء، لم يتركوا بابا من الشر إلا دخلوه علي الرسول ﷺ وعلي أصحابه، ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله بل وجهوا له الأذى فى مهاجره.

ـ **ومنها** زعمهم أنه استخدم مع أهل مكة أسلوباً بربرياً خارجاً عن حدود اللياقة والأدب، مستندين فى ذلك لسورة المسد أعنى قوله تعالى : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب**﴾ .

والواقع : أن السورة لا تدل على ذلك السباب الذى زعموه ووصموا به القرآن، لأن سورة ﴿ **تبت يدا أبى لهب** ﴾ غاية ما اشتملت عليه أنها إنذار ووعيد لأبى لهب وامرأته جزاء ما أساء إلى الرسول ﷺ وصحبه كما يدل على ذلك سبب نزولها، فقد أخرج الشيخان والأمام أحمد والترمذى من حديث ابن عباس أنه لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر يا بنى عدى، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جّربنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدىْ عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبى لهب كانت تأتى بأغصان الشوك تطرحها بالليل فى طريق رسول الله ﷺ، إذن فهذه السورة كانت تطبيقاً للعدل الإلهى فى أن الجزاء من جنس العمل .

على أنه يلاحظ فى آفاق القسم المكى، ظاهرة باهرة تسكت كل معاند، وتفحم

كل مكابر فى هذا الموضوع، وهى أن القسم المكى خلا خلواً تاماً من تشريع القتال والمخاشنة كما خلت آياته فى مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل فلم يسمع للمسلمين فيها صلصلة لسيف، ولا قعقعة لسلاح، ولا زحف على عدو، إنما هو الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة على الرغم من إيغال الأعداء فى أذاهم ولجاجهم فى عتوهم، سباً وطعناً، وقتلاً ونهباً ومقاطعة ومهاترة ومصاولة، ومكابرة .

الشبهة الثانية :

يقولون : إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية، يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكى والقسم المدنى، ويدل على أن القسم المكى يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة، ويدل على أن القرآن فى نمطه هذا نتيجة لتأثر محمد بالوسط والبيئة، وتلك نتيجة الأمية فى مكة والتعلم فى المدينة .

(أ) وحسبنا فى إبطال هذه الفرية أن نذكر هؤلاء التائهين أن سورة الأنعام من طوال السور وهى مكية، وسورة: ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ من قصار السور وهى مدنية !!

(ب) وأن الاختلاف بين الطول والقصر غير دال على قطع الصلة، فكلاهما فى أعلى مراتب الفصاحة، يدرك ذلك من له تذوق بقواعد علوم البلاغة .

(جـ) توجد آيات مدنية فى سور مكية، وآيات مكية فى سور مدنية ولا خلل ولا اضطراب، بل دقة انسجام وجميل ترتيب، وما علم المناسبات بين الآيات والسور إلا مرآة تكشف ما فى ترتيب الآيات والسور من إحكام .

(د) إن قصر السوز والآيات المكية لا يدل علي مازعموه من امتياز القسم المكى بمميزات الأوساط المنحطة، بل العكس هو الصحيح فإن القصر مظهر من

مظاهر الإيجاز، والإيجاز مظهر رقى المخاطب وآية علي فهمه وذكائه إذ يكفيه من الخطاب أقصره، بخلاف من كان دونه ذكاءً وفهما فلابد فى إفهامه من الإطناب والبسط، فإن دل قصر الخطاب فى مكة على شيء فإنما يدل على نباهة القوم وألمعيتهم، وقد كانوا كذلك فإنهم فى الذؤابة من قبائل العرب ذكاء وألمعية وفصاحة وشرفا.

(هـ) إن تحدى القرآن كما هو موجود فى سور مكية كسورة يونس والإسراء، هو موجود كذلك فى سورة مدنية كسورة البقرة .

الشبهة الثالثة :

يقولون : إن القسم المكى قد خلا من التشريع والأحكام، على حين أن القسم المدنى مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام، وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد وتأليفه تبعاً لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه!! فعندما كان فى مكة بين أميين خلا كتابه من العلوم والمعارف العالية، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء كتابه مليئا بتلك العلوم والمعارف!!

ومما ينقض هذه الشبهة ما يلى :

(أ) أن القسم المكى لم يخل جملة من التشريع والأحكام، بل عرض لها ولكن بطريقة إجمالية، كما فى الوصايا العشر من سورة الأنعام فى قوله تعالى: ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا** ﴾ إلى تمام ثلاث آيات بعدها، فقد أشار إلى مقاصد الدين الخمسة حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، على أن التشريع بمعناه العام يشمل كل ما شرع الله لعباده مما يقربهم إليه ويعرفهم به، فيشمل العقائد والأخلاق والمعاملات وغير ذلك، لكنه صار عرفاً فى تنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض، وهذا موجود فى الوصايا

العشر .

(ب) تفصيل التشريع فى المدينة ليس نتيجة لما زعموه، بل تمشياً مع الحكمة الرشيدة فى سياسة الأمم، فلابد من التمهيد قبل التوجيه، والإجمال قبل التفصيل، وذلك أن الطفرة نتيجتها الخيبة، والتدرج نتيجته النجاح والتوفيق، وتقديم الأهم على المهم واجب فى نظر الحكمة.

(جـ) أن ما زعموه لو كان صحيحا لظهر أثر أهل الكتاب المدنيين فيمن معهم من عرب أهل المدينة، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة، ولكانوا هم الأحرياء بالنبوة والرسالة، ولسبق محمدا إليها كثير غيره من فصحاء العرب وتجار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب فى المدينة والشام أيما اختلاط.

(د) أن القرآن الكريم تحدى الناس كافة مكيين ومدنيين، فهلا كان من أهل المدينة هؤلاء من يستطيعون أن يجاروه ولو فى مقدار سورة قصيرة واحدة.لو كانوا كما يزعم أولئك المبطلون مصدر الإلهام والتعليم؟!

لقد كان فى مكة الأميون والبلغاء، وفى المدينة أهل الكتاب والعرب الأميون، فكان أهل مكة يلمحون بذكاء خارق الإشارات إلى التعميم والتفصيل المرتقب من مثل قوله تعالى فى سورة فصلت المكية ﴿ **وويل للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾ [فصلت: ٦-٧] بل إن التدرج بدأ فى مكة وانتهى فى المدينة عندما قال عمر: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، ثم توالت الآيات فى التدرج فى تحريم الخمر بالمدينة .

الشبهة الرابعة:

يقولون : إن القرآن أقسم كثيراً بالضحى، والليل، والتين والزيتون، وطور سينين، وكثير من المخلوقات، ولا ريب أن القسم بالأشياء الحسية يدل على تأثر القرآن بالبيئة فى مكة، لأن القوم فيها كانوا أميين، لا تعدو مداركهم حدود الحسيات، أما بعد

الهجرة واتصال محمد بأهل المدينة، وهم قوم مثقفون مستنيرون، فقد تأثر القرآن بالوسط الراقي وخلا من تلك الأيمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة!!

ومما يبطل هذه الشبهة ما يلى :

(أ) أن القسم بالأمور الحسية لم يكن مرده إلى انحطاط القوم، بل إلى رعاية مقتضي الحال فيما سيق القسم لأجله، وقد تفشت فى القوم عقائد الشرك فلم يكن من سبيل إلى استئصالها إلا بلفت عقولهم إلى ما فى الكون من خلق الله وشئون الله، وفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الله المحيطة بهم ليصلوا من وراء ذلك إلى الإيمان بالله وحده وإلى عبادته وحده.

(ب) ما من مُحَس وَقَعَ مُقسَماً به فى القرآن إلا وفيه أسرار عجاب تنأى به عن السذاجة والبساطة، وتشهد ببراعة المخاطبين به وتفوقهم فى الفهم والذكاء والبيان، لأن فى القسم به إشارة إلى تلك الأسرار العظيمة التى أودعها الله فيه وهذه الأسرار لا يدركها إلا اللبيب، ولا يفهمها إلا من كمل عقله وسلم ذوقه، كما قال تعالى فى سورة الواقعة المكية ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

لقد أقسم الله جل وعلا بالضحى والليل إذا سجى، وفى هذا القسم إشارة إلى أن تنزل الوحى أشبه بضحوة النهار، وأن فترة الوحى أشبه بهدأة الليل.

وسبب نزول هذه الآيات أن النبي ﷺ فتر عنه الوحى مرة فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه أي تركه أو أبغضه، فنزلت هذه الآيات مصدرة بهذا القسم، مشيرة إلى أن ما كان من سطوع الوحى على قلبه بمنزلة الضحى، وأن ما عرض بعد ذلك من فترة الوحي فإنه بمنزلة الليل إذا سجى، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالتسليم والرضا لما فيهما من نفع للإنسان بالسعى والحركة فى النهار والنوم والاستجمام بالليل فيجب

أن يتقبلوا ما يجري على محمد ﷺ من نزول الوحى وفترته للمعنى الذى سلف.

وأقسم بالتين إشارة إلى العهد الأول للإنسان، حيث آدم، وبالزيتون إشارة إلى العهد الثانى حيث نوح، وقد أغرق الله الأرض، ولم يبق فيها جافاً سوى الزيتون، وطور سينين تذكيراً بعهد موسى، والبلد الأمين تذكيراً بتلك الشريعة الغراء حيث نشأ محمد ﷺ، وعلى سائر الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم .

وهكذا كالقسم بالعصر الذى ينشط فيه الإنسان والفجر الذى يبدأ فيه نشاطه، والليالى العشر التى فيها ليلة القدر، هى خير من ألف شهر، والنجم الذى يقتدى به ويهتدى إشارة إلى نبيه ﷺ ومعراجه، وكن يقظاً متأملاً فى سائر الأقسام، فسوف تجد فيها من الأسرار العجاب ما لا يدركه إلا من كمل عقله وسلم ذوقه.

الشبهة الخامسة :

يقولون : إن القرآن فى قسمه المكى قد خلا من الأدلة والبراهين بخلاف قسمه المدنى فإنه ملىء بالأدلة، مدعم بالحجة، وهذا برهان جديد على تأثر القرآن بالوسط الذى خاطبه محمد ﷺ ، وإبطال هذه الشبهة فيما يأتى:

- إن دعوى خلو المكى من الأدلة والبراهين دعوى باطلة، وليقرؤا قوله تعالى فى سورة الطور المكية : ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون**﴾ [الطور: ٣٥] فهذا هو الاستقراء التام الذى يعتبر من أقوى البراهين، فإذا كان الاحتمال منحصراً فى ثلاثة فروض بطل منها اثنان، تعين الثالث بداهة، وليقرؤا السبر والتقسيم فى سورة الأنعام ﴿**ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير**

علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [الأنعام:١٤٤]

وليقرؤا التسليم بفرض المحال جدلاً في سورة المؤمنون المكية **﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾** [المؤمنون:٩١] .

وليقرؤا التدليل على نبوة محمد ﷺ في سورة العنكبوت المكية في قوله تعالى: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾** [العنكبوت:٤٨، ٤٩] أو التدليل على البعث في سورة فصلت المكية في مثل قوله تعالى: **﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير﴾** [فصلت: ٣٩] أو في سورة ق المكية في قوله تعالى: **﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾** [ق : ١٥] وهكذا يتبين لنا أن دعاواهم أساسها الجهل والفساد والطغيان [انظر هذه الشبه في كتاب مناهل العرفان للزرقاني] .

٦ الخلاصة

تعريف المكى والمدنى :

وأرجح الأقوال فيه أن المكى هو ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعد الهجرة .

* السبيل إلى معرفة المكى والمدنى هو الرواية الصحيحة الصادقة .

* خصائص القرآن المكى :

١ - محاججة المشركين . ٢- ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية .

٣- تثبيت فؤاد النبى ﷺ . ٤- قصر الآيات مع قوة وقعها .

* خصائص القرآن المدنى :

١ - البحث فى الأحكام والتشريعات .

٢- الأمر بالجهاد والتعليق على الغزوات .

٣- البحث فى شؤون الحكم والشورى .

٤- طول الآيات مع اللين والهدوء .

* الفائدة من معرفة هذ العلم :

١ - معرفة الناسخ والمنسوخ . ٢- تتبع مراحل الدعوة الإسلامية .

٣- التبصير بمعانى الآيات .

* أثار أعداء القرآن شبهات حول المكى والمدنى مرجعها إلى الجهل بالقرآن واللغة أو الفساد والعناد ، وهى شبهات داحضة لا تثبت أمام أدنى مناقشة علمية جادة .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص ١٨٥ - ٢٣٢ .

٢- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٥١ - ٦٤ .

٣- مباحث فى علوم القرآن لصبحى صالح ص ١٦٤ - ٢٣٣ .

٧ أسئلة التقويم الذاتي

س١ بين الأقوال التى ذكرت فى تعريف المكى المدنى ، وبين الراجح منها .

س٢ ما السبيل إلى معرفة المكى والمدنى ؟

س٣ بين خصائص كل من القرآن المكى والقرآن المدنى .

س٤ ما هى الفوائد المتحققة من معرفة هذا العلم ؟

س٥ اذكر الشبهات التى أثيرت حول موضوع المكى والمدنى ، وكيف ترد على كل منها ؟



الوقف والابتداء

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملما بما يلي :

[١] أهمية معرفة الوقف والابتداء .

[٢] أقسام الوقف .

[٣] ما يترتب علي الجهل بالوقف والابتداء .

١ أهمية معرفة الوقف والابتداء

الوقف والابتداء من مهمات علم التجويد، وبهما يستدل على فقه القارئ وبصره بالقراءة، فلا بد من معرفتهما لأن الترتيل الذى أمر الله تعالى به يتمثل فى تجويد الحروف ومعرفة الوقوف، ويلزم من معرفة الوقف معرفة الابتداء، فمن عرف متى يقف عرف متى يبتدئ، ومرد معرفة الوقف والابتداء إلى معرفة القارئ بكتاب الله ودرايته بمعنى كلماته، وإلى معرفته التامة بعلوم العربية من نحو وصرف وغيره ثم على ذوقه الرفيع المبنى على تلك المعرفة فى اختيار ما يقف عليه أو يبتدئ به .

فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ، فنعلم حلالها وحرامها، **وما ينبغى أن يوقف عنده منها** كما تتعلمون أنتم القرآن اليوم، ولقد رأينا اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدرى ما أمره ولا زجره ولا **ما ينبغى أن يوقف عنده منه** .

ووجه الدلالة أن قوله رضى الله عنه، وماينبغى أن يوقف عنده منه يدل على أنهم رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون الوقف ويعتبرون ذلك من تمام تعلمهم للقرآن .

وعن على رضى الله عنه ، فى قوله ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ [المزمل: ٣] قال : الترتيل: تجويد الحروف ومعرفة الوقوف .

٢ أقسام الوقف

وقد اصطلح علماء القرآن على تقسيم الوقف إلى ثلاثة أقسام

١- تـــام : وهو ما يتم عنده الكلام، وينقطع عما بعده لفظا ومعنى، وهو أكثر ما يكون في رؤوس الآى وانقضاء القصص وأواخر السور، ومثاله الوقف على ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾، والابتـداء بـ ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ أو الـوقف عـلى ﴿ **وأولئك هم المفلحون**﴾ في أول البقرة والابتداء بـ ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم** ﴾

٢- حسن : وهو الوقف عند معنى مفيد ولكن لم يتم ، كالوقف على (**الحمد لله**) والابتداء بـ (**رب العالمين**) .

٣- وقبيح : وهو الوقف قبل استكمال المعنى كالوقف قبل الاستثناء .

واعلم أنه بسبب عدم معرفة الوقف والابتداء قد انتشر الجهل إلى حد يفسد المعنى .. ذلك لأن الوقف قبل تمام المعنى مفسد، وكذلك وصل ما يجب الوقف عليه مفسد أيضاً. وهاك بعض النماذج .

لو وصلنا قوله تعالى من سورة غافر : ﴿ **وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾ [غافر: ٦] بما بعده وهو قوله ﴿ **الذين يحملون العرش** ﴾ لفسد المعنى، ولهذا قال ابن عباس: يوقف عند قوله تعالى: ﴿ **أنهم أصحاب النار** ﴾في سورة المؤمن مقدار ما يشرب الشربة من الماء.

وكذلك قوله : ﴿ **سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات ومافى الأرض** ﴾ لو لم تقف على ولد لفسد المعنى .

وإذا وقفنا عند قوله : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا :** ﴾ ثم ابتدأنا ﴿ **إن الله فقير** ﴾ لكان ذلك كفراً إن تعمده من وقف على القول وابتدأ بمقول القول!

وأنبه إلى أنه قد يضطر القارئ عند انقطاع النفس إلى الوقف، وهذا له حكم الضرورات، فإن من المتقرر فى قواعد الفقه أن الضرورات تبيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها، ولكنه عليه أن يبتدئ بما لا تعلق له بما قبله لأنه مختار وليس بمضطر، وليس كل ما يتعسفه بعض المعربين أو يتكلفه بعض القراء أو يتأوله بعض أهل الأهواء مما يقتضى وقفاً أو ابتداء ينبغى أن يتعمد الوقف عليه، بل ينبغى تحرى المعنى الأتم، والوقف الأوجه .. فإن ذلك مما يفسد المعنى أحيانا - كوقف بعضهم على قوله : ﴿**ثم جاءوك يحلفون**﴾ ويبتدئ : ﴿ **بالله إن أردن إلا إحسانا وتوفيقا** ﴾ لأنه يكون على لسان المتكلم مع أنه حكاية عن حال من أحوال المنافقين .

ولابد للقارئ من معرفة بعض المذاهب المشهورة فى الفقة والنحو والتفسير حتى لا يفسد المعنى بقراءته .

ولأئمة القراء مذاهب فى الوقف والابتداء تطلب من كتب التجويد والقراءات.

٣ الخلاصة

*- معرفة الوقف والابتداء من تمام تعلم القرآن .

*- ينقسم الوقف إلى :

١ - تام : وهو ما يتم عنده الكلام وينقطع عما بعده لفظاً أو معنى .

٢- حسن : وهو الوقف عند معنى مفيد ولكن لم يتم .

٣- قبيح : وهو الوقف قبل استكمال المعنى .

*- قد يترتب على الجهل بالوقف والابتداء إفساد لمعانى القرآن ، والطعن فى القارئ كما إذا تعمد الابتداء بقول للكافرين أو المنافقين .

*- إذا انقطع النفس واضطر القارئ إلى الوقوف جاز له ذلك اضطرارا على أن يبتدئ بما لا تعلق له بما قبله .

المراجع المساعدة :

١ - مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ١٨٠ - ١٨٦ .

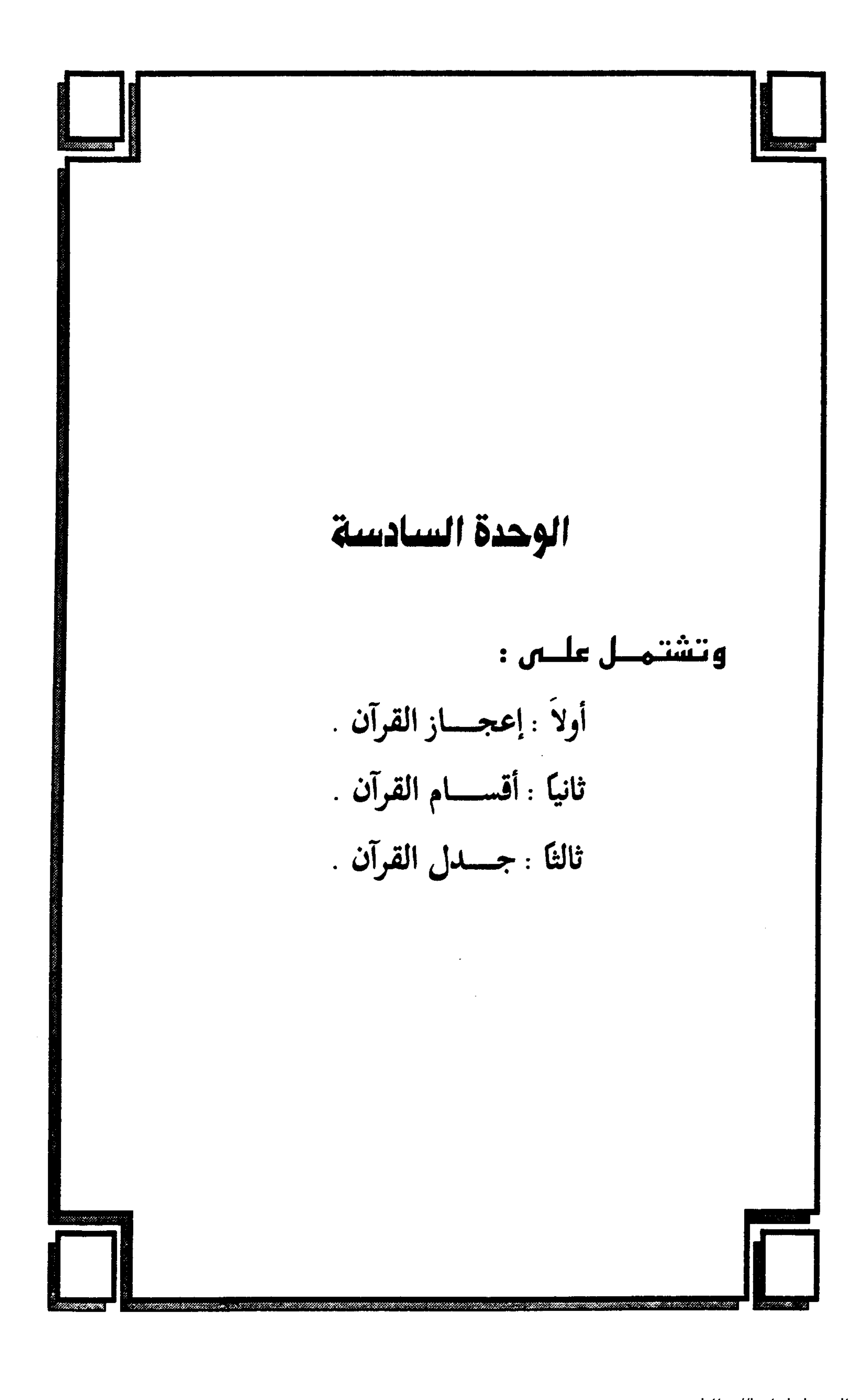
٤ أسئلة التقويم الذاتي

س١ ما أهمية معرفة الوقف والابتداء ؟

س٢ ما أقسام الوقف ؟ مع ذكر مثال لكل قسم .

س٣ ما الذى يترتب على الجهل بالوقف والابتداء ؟

س٤ ماذا يفعل من انقطع نفسه فى القراءة عند وقف قبيح ؟



الوحدة السادسة

وتشتمل على :

أولاً : إعجاز القرآن .

ثانيا : أقسام القرآن .

ثالثا : جدل القرآن .

أولاً إعجاز القرآن

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملمًا بما يلي :

[١] معني إعجاز القرآن .

[٢] شروط تحقق الإعجاز .

[٣] بطلان القول بالصرفة .

[٤] وجوه إعجاز القرآن الكريم وتتمثل في :

أ - الإعجاز اللغوي .

ب- الإعجاز التشريعي .

جـ- الإعجاز العلمي .

١ معنى إعجاز القرآن

الإعجاز في اللغة: إثبات العجز أو نسبة العجز إلى الغير، وتسمى المعجزة معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها لأنها أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعهودة .

وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله.

ويتحقق الإعجاز بوجود التحدي، وقيام الدافع إلى رد هذا التحدي، وانتفاء المانع من ذلك .

وقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على ثلاث مراحل:

* تحداهم بالقرآن كله: في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى: ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ [الإسراء :٨٨] ، وقال تعالى: ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين** ﴾ [القصص: ٤٩] .

* ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله** ﴾ [هود :١٣، ١٤] .

* ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله: ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله**﴾ [يونس :٣٨] ، وكرر هذا التحدى في قوله: ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وقد توافرت لدى العرب الدوافع لرد هذا التحدي الذي يعلنه عليهم من يشهد

عليه بالكفر ويسفه أصنامهم ويفرق بهذا الدين بين الولد وأبيه .

ولم يكن لدى العرب مانع يحول بينهم وبين رد هذا التحدي لو كانوا يستطيعون فهم أرباب الفصاحة والبلاغة التي شهد بها الأولون والآخرون وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعى عجز للغة العربية فى ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال فى موقف التحدى شامخ الأنف، فأسرار الكون التى يكشف عنها العلم الحديث ما هى إلا مظاهر للحقائق العليا التى ينطوى عليها سر هذا الوجود فى خالقه ومدبره، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه – فصار القرآن بهذا معجزاً للإنسانية كافة .

٢ وجوه إعجاز القرآن الكريم

بعد أن أجمع أهل العلم على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر أن يأتي بمثله ، تعددت أقوالهم فى وجوه إعجاز هذا الكتاب المبارك، وقبل أن نَشْرَع في بيان أهم هذه الوجوه ، نبادر أولا إلى تفنيد الزعم القائل بأن إعجاز القرآن كان بالصرفة.

٣ بطلان القول بالصرفة

زعم النظام ومن تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للعادة، أو أن الله سلبهم العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل هذا القرآن، ويؤول هذا القول إلى أن القرآن ليس معجزاً لذاته وإنما يرجع اعجازه إلى هذا الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة أو إلى هذا العارض المفاجيء الذي

عطل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية .

وهذا القول باطل من جملة وجوه :

أولاً : أنه لو صح لكان الإعجاز في الصرفة لا في القرآن ذاته وهو باطل بالإجماع .

ثانياً : أنه لو صح لكان تعجيزاً لا إعجازاً، لأنه يكون بمثابة ما لو قطعنا لسان إنسان وكلفناه بالكلام فهو من باب التعجيز وليس من باب العجز.

ثالثاً : قوله تعالى: ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ [الاسراء: ٨٨] ، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم فإنه يصبح بمنزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بالأمر الكبير الذي يحتفل بذكره .

٤ الإعجاز اللغوي في القرآن

ويتمثل في النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب الأمر الذي شهد به أئمة البيان وأساطين البلاغة سواء في العصر الأول أو فيما تلاه بعد ذلك من العصور، وكلما ارتفعت اللغة وتسامت وقفت على أعتاب لغة القرآن كسيرة صاغرة، تنحنى أمام أسلوبه إجلالاً وإكبارا، ولقد سجل التاريخ هذا العجز على اللغة العربية في أزهى عصورها وأرقى أدوارها حين نزل هذا القرآن ، وتتابعت القرون لدى أهل العربية وظل الإعجاز القرآني اللغوي راسخاً كالطود الشامخ تزل أمامه الأعناق خاضعة لا تفكر في أن تدانيه فضلا عن أن تساميه! وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين!

ولن ينسى التاريخ موقف الوليد بن المغيرة من القرآن ومقالته فيه ، فقد روي

الحاكم والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له : يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنى حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره فنزلت ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيداً** ﴾ [المدثر : ١١] .

وكما يتمثل الإعجاز اللغوي في النظم البديع يتمثل في الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية سواء في نظامه الصوتي أو جماله اللغوي، أو مخاطبته للعقل والقلب معاً، أو جودة سبكه وإحكام سرده، أو براعته في تصريف القول وتفننه فى ضروب الكلام، أو جمعه بين الإجمال والبيان، ووفائه بالمعنى مع القصد في اللفظ.

تأمل في المزج بين مخاطبة العقل والقلب معاً فى قوله تعالى: ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير** ﴾ [فصلت: ٣٩] ، لترى كيف يسوق هذا الدليل العقلي سوقا يمس شغاف القلوب ويمتع الوجدان والعاطفة.

وانظر في قصة يوسف إلى مزج العظات البالغة بالبراهين الساطعة على وجود الاعتصام بالعفاف والشرف، وذلك في مقابلة دواعى الغواية الثلاث بدواعي العفاف

الثلاث في قوله تعالى: ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون**﴾ [يوسف:٢٣] ، ألست ترى مزيجاً حلواً سائغاً يخفف على النفوس تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية ؟!

وكما يتمثل الإعجاز اللغوي في النظم البديع والأسلوب العجيب يتمثل كذلك في الإيجاز الراقي والجزالة المذهلة ، الأمر الذي كان يحمل البدوي على أن يخر ساجداً لله عز وجل أمام عظمة هذا الكتاب وشموخه، يروى أن الأصمعي مر ذات يوم بجارية خماسية أو سداسية وسمعها تنشد أبياتاً من الشعر فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت له: ويحك أُوَيُعَدُّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص:٧] ثم قالت له: لقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، فقال الأصمعي: فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر مما أعجبت بشعرها !

٥ الإعجاز التشريعي في القرآن

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم الإعجاز التشريعي ويتمثل فيما يتضمنه من هداية تشريعية كاملة تفوق كل تشريع وضعي عرفته البشرية على مدار القرون، وليس عجباً أن تفوق هداية الوحي أهواء البشر ولا أن تفوق شريعة الخالق شرائع المخلوقين، فقد تضمن القرآن الكريم بين دفتيه أصول العقائد وأحكام العبادات والمعاملات والآداب ، واحتوى على منظومة تشريعية متكاملة في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقف أمامها قادة هذه العلوم في واقعنا

المعاصر مذهولين وظلت أعناقهم لها خاضعين، وهي تكفل لمن تبعها الحياة الطيبة في هذه الدنيا والفوز بنعيم الخلد في الآخرة.

تأمل في منظومة التشريعات العقابية في الإسلام، وانظر كيف تمخض تطبيقها عن مجتمع قد اختفى منه شبح الجريمة وما وقع فيه من أحداث نادرة كان حديث الركبان لشذوذه وغرابته.

إن تاريخ الجيل الأول يذكر لنا قصة ماعز والغامدية [1] لأنها أحداث نادرة وتمثل شذوذا عن المألوف العام في المجتمع يوم ذاك، ترى كم عدد هؤلاء الزناة تحت خيمة العلمانية وتحكيم القوانين الوضعية، وكم عددهم في المجتمعات الغربية حيث لا دين ولاشريعة ؟!

تأمل في تخبط العالم في تعامله مع الخمر بين إباحة وتحريم ثم قارن ذلك مع موقف الإسلام الثابت من الخمر وسياسته الحكيمة فى التدرج فى تحريمها أول مرة لتعرف الفرق بين هدى الله وبين أهواء الذين لا يعلمون، لقد حرمت أمريكا الخمر أربع عشرة سنة ثم عادت إلى إباحتها بعد أن تزايد عدد المدمنين والمدمنات لأنها حاولت أن تتعامل مع الطبيعة البشرية بعيداً عن مفاتيحها الربانية، وحرم الإسلام الخمر وفقا لمنهاجه الربانى فلا تزال الخمر حراما بتحريمه فى شريعة الإسلام وفى ضمائر المسلمين على مدى هذه القرون المتعاقبة.

تأمّل كيف أقام الإسلام حكمه على أساس العدل والمساواة والشورى، وكيف جعل من العدل قيمة مطلقة لاتتأثر بحب الذات ولابعاطفة القرابة ولابالعوامل الاجتماعية من فقر وغنى، قال تعالى: **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى**

١ - هما رجل وامرأة زنيا على عهد رسول الله ﷺ واعترف بذنبهما وتابا إلى الله وأقيم عليهما حد الرجم .

بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [النساء: ١٣٥] ، وكيف جعل من الشورى سمة عامة من سمات المجتمع المسلم وليس مجرد قاعدة من قواعد نظام الحكم فيه، فالسورة التي تسمت باسمها في القرآن الكريم سورة مكية توجه الخطاب بها إلى جماعة المسلمين قبل أن تقوم لهم دولة أو تعقد لهم راية. تأمل فى ذلك كله وقارن بينه وبين قوانين التفرقة العنصرية وروح الأثرة الأنانية والتعصب البغيض الذى تتجرع البشرية غصصه في غيبة الشريعة وتراجعها عن الحاكمية والمرجعية.

بل تأمل في شريعة الإسلام في الحرب والعلاقات الدولية، ثم ارجع البصر كرتين في آدابه ودستوره الحضاري في هذا المجال، فقد نهي عن كل صور التخريب التي لا تقتضيها ضرورة القتال، وحرم قتل الأطفال والنساء والزمني [١] وكل من لم يشارك في القتال وكيف جعل من ذلك كله ديناً يتعبد به ولا يملك أحد أن يخرج عليه ثم قارن ذلك بحروب الإبادة الجماعية وسياسة الحصار والتجويع التى يقودها العالم الغربي في القرن العشرين باسم الشرعية الدولية وتحت مظلة الأمم المتحدة.

والخلاصة أن القرآن دستور تشريعى كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال ، وسيظل إعجازه التشريعى قريناً لإعجازه العلمى وإعجازه اللغوى إلى الأبد ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث فى العالم أثراً غير وجه التاريخ.

قال تعالى: **﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾**[طه:١٢٣، ١٢٤] .

١- المبتلون بالعاهات .

ويقصد به عدم تعارض شئ من حقائق العلم مع مقررات القرآن الكريم ، كما يقصد به مطابقة الحقائق العلمية لما ورد فى شأنها من الآيات القرآنية .

لايخفى أنه ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما على مثله آمن الناس ، ولما كانت رسالة محمد ﷺ باقية مابقيت هذه الحياة فى امتدادها الزماني، مخاطبة لأهل الأرض قاطبة في امتدادها المكاني كان لابد أن يتضمن القرآن الكريم وهو معجزة الإسلام الخالدة من وجوه الإعجاز ماتقام بمثله الحجة على أهل كل عصر على امتداد الزمان والمكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كان الإعجاز اللغوي تقام بمثله الحجة على من ينطقون اللغة العربية ويتذوقون فنونها وأساليبها فلا بد من وجوه أخرى من الإعجاز تقام بمثلها الحجة على غير العرب، بل وعلى العرب أنفسهم في أطوار انحطاطهم اللغوي وتراجعهم البياني.... وهذا هو دور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

فلقد تضمن القرآن الكريم أنباء على الكون والإنسان والحياة، وأخبر أن لهذه الأنباء زمناً تستقر عنده وتتكشف فيه ، فقال تعالى: ﴿**لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون**﴾ [الأنعام: ٦٧] .

وإذا كان بعض هذه الأنباء يتعلق بأحداث يوم القيامة وما وعد به الناس فيه من حساب وثواب وعقاب، فإن بعضها الآخر يتعلق بأحداث تقع في هذه الحياة منها ما وعد به المؤمنون من نصر وتمكين، ومنها ما يتعلق بأشراط الساعة وما يكون بين يديها من أحداث جسام، ومنها مايتعلق بتأويل بعض الآيات القرآنية التى تتضمن إشارات إلى بعض الحقائق العلمية، وهذا الأخير هو موضع الشاهد فى هذا المقام .

هذا وإن زمن استقرار هذه الأنباء هو زمن تكشفها للعيان ورؤيتها حقيقة مشهودة في الواقع المحسوس، ولقد وعد الله جل وعلا بأن يرى عبادة من هذه الآيات ما يتبين لهم معه أن هذا القرآن حق من عند الله فقال تعالى: ﴿ **وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ [النمل: ٩٣] ، وقال تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ [فصلت: ٥٣] ، ولتتأمل معي عزيزي الدارس مليا فى هذه الحقائق.

* لقد تخبطت البشرية طويلاً في الإجابة على هذا السؤال: م يخلق الولد؟ فمرة قالوا إنه يخلق من دم الحيض، ومرة قالوا إنه يخلق من ماء الرجل وحده، ومرة قالوا بعكس ذلك، إلى أن توصلوا في النهاية إلى أنه يخلق من كل من ماء الرجل وماء المرأة بعد رحلة من الأبحاث والدراسات، وبواسطة أعقد الأجهزة والمختبرات ، لكن موقف القرآن الكريم كان ثابتاً محدداً في هذه القضية منذ اللحظة الأولى وكان علماء القرآن بمعزل عن هذه التخبطات بما يحملونه من نور الوحى المعصوم، فقال تعالى: ﴿**من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره** ﴾ [عبس: ١٨، ١٩] ، وقال تعالى: ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى** ﴾ [النجم ٤٥، ٤٦] ، ثم بين هذه النطفة في مقام آخر فقال: ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ [الإنسان: ٢] ، أي نطفة أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة، فمن ذا الذي أخبر محمدا ﷺ وهو النبى الأمى بهذه الحقائق التي لم يصل إليها العالم إلا بعد سلسلة من التخبطات وبعد اكتشاف أعقد الأجهزة والوسائل؟

* لقد ظلت البشرية تعتقد أن الجنين يتكون في الرحم دفعة واحدة ولايمر خلقه بأطوار، ولايحدث له في الرحم إلا مجرد تكبير، ولم تصل إلى حقيقة مرور الجنين فى أطوار مختلفة من الخلق إلا مؤخرا بعد اكتشاف المجاهر والمكبرات، ولكن

القـرآن الكريم ظل بمنأى عن هذا التـخـبط، وعـاش المؤمنون به بمنأى عن هذه التوهمات، فلقد قرر منذ اللحظة الأولى أن الجنين يمر بأطوار مختلفة من الخلق، فقال تعالى: ﴿ **مالكم لاترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا** ﴾ [نوح: ١٣، ١٤] ، وقال تعالى: ﴿ **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث** ﴾ [الزمر: ٦]، ثم بين هذه الأطوار بالتفصيل فقال: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [المؤمنون: ١٢_ ١٤] .

فمن أعلم محمداً ﷺ بهذه التفصيلات والدقائق عن هذا العالم المجهول الذي يتوارى خلف ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة الغشاء المعروف بالرهل ؟!.

* وفي مجال الحديث عن نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا وما يؤدي إليه من ضيق في الصدور وحرج في التنفس يأتي قول الله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء** ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

* وفي مجال وحدة الكون وكونه كان شيئاً واحداً متصلاً من غاز ثم انقسم إلى سدائم وأن عالمنا الشمسي كان نتيجة لهذه الانقسامات يأتي قول الله تعالى: ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون** ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، وتأمل توجيه الخطاب في صدر هذه الآية إلى الذين كفروا وتذييلها بدعوتهم إلى الإيمان، وربما كان بعض الحكمة في ذلك أن هؤلاء القوم أسبق إلى اكتشاف هذه الحقيقة من غيرهم فلعل تذكيرهم بها

يسوقهم إلى الإيمان.

ولسنا بصدد استقراء هذه الإشارات القرآنية فإنها أكثر من أن يستوعبها الحصر ولايزال هذا القرآن يهب كنوزه ويتفجر عطاؤه ولاتنقضي عجائبه!

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن القرآن كتاب هداية وإرشاد في المقام الأول، وأن ما ورد فيه من إشارات علمية إنما ورد في مقام الهداية والإرشاد، وأن مقصودها الأول أن تكون دليلاً على عصمة هذا الكتاب وأن الذى جاء به رسول من عند الله.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن الناس في قضية الإعجاز طرفان وواسطة بينهما:

- فمنهم من غلا في هذا الباب، فأخذ يلهث وراء كل جديد في نظريات العلم يفسر به بعض آيات الكتاب لعله يتكلف إعجازاً أو يعتسف برهاناً مع ما في ذلك من التغرير بمصداقية هذا الكتاب عندما تتبدل هذه النظريات ويظهر عوار هذه التفسيرات.

- ومنهم من فرط فأغلق هذا الباب بالكلية فراراً من المحاذير التي تورط فيها الفريق الأول مع ما في ذلك من تفويت الإفادة من هذا الوجه الحيوي من وجوه الإعجاز.

- والمتوسطون بين هؤلاء وهؤلاء من أحكموا ضوابط البحث في هذا المجال، ففرقوا بين الحقائق والنظريات، ولم يربطوا كتاب الله بنظريات متغيرة، كما لم يتعسفوا في تفسير الآيات القرآنية لتلتقي مع الحقائق العلمية، بل أقاموا منهجهم في البحث على ثلاث دعائم:

- **الأولى** : الحقيقة الشرعية، وفيها يحرصون على التثبت من أنهم أمام حقيقة

شرعية مستيقنة، وسبيلهم إلى ذلك تحقيق هذا الجانب مع الثقات العدول الفحول من علماء الشريعة.

– **الثانية** : الحقيقة الكونية ، وفيها يحرصون على التثبت من أنهم أمام حقيقة كونية قد اتفق عليها قادة هذا التخصص على مستوى العالم، وأجمعوا على تجاوزها مرحلة الاحتمالات والنظريات.

– **الثالثة** : وجه الإعجاز، ويشترط فيه ألا يتضمن الربط بين الحقيقتين: الكونية والشرعية نوعاً من التكلف أو التعسف، أو الخروج على الظاهر المتبادر بغير برهان ساطع .

وإن من بوادر الخير فى هذا المقام تأسيس هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة بمكة المكرمة ، وهى أول هيئة علمية متخصصة تعنى بدراسة وتحقيق هذا الوجه من وجوه الإعجاز، وقد شرفت هذه الهيئة برئاسة فضيلة الشيخ عبد المجيد الزندانى ذلك الرجل الذى شغف قلبه بحب المعجزات، وتوشك أن تنتهى إليه ريادة هذا العلم فى هذا الزمان .

٧ الخلاصة

* **الإعجاز فى اللغة** : إثبات العجز .

وإعجاز القرآن : إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله .

* **يتحقق الإعجاز بثلاثة أمور مجتمعة :**

١- وجود التحدى . ٢- قيام الدافع على رد هذا التحدى .

٣- انتفاء المانع من ذلك .

* ادعى قوم أن إعجاز القرآن إنما كان بصرف الله للعرب عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذا القول باطل عقلاً ونقلاً .

* **وجوه إعجاز القرآن الكريم :**

أولاً : الإعجاز اللغوى .

ويتمثل فى النظم البديع الفريد ، وفى الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية فى نظامه الصوتى أو جماله اللغوى ، أو مخاطبته للقلب والعقل معا، أو جودة سبكه وإحكام حبكه ، أو براعته فى تصريف القول وتفننه فى ضروب الكلام، أو جمعه بين الإجمال والبيان ، ووفائه بالمعنى مع القصد فى اللفظ .

ثانيا : الإعجاز التشريعى :

ويتمثل فيما يتضمنه من هداية تشريعية كاملة تفوق كل تشريع وضعى عرفته البشرية على مدار القرون ، الأمر الذى أدى بالمجتمع الذى طبقت فيه تشريعات القرآن إلى اختفاء شبح الجريمة من ساحته ، مع تفرده فى مجالات الشورى والمساواة .

ثالثاً : الإعجاز العلمى :

مطابقة الحقائق العلمية لما ورد فى شأنها من الآيات القرآنية ، وذلك لتقوم

الحجة به على من لا تقوم عليهم الحجة بإعجازه اللغوى ، ومن أمثلة ذلك :

١- ما قرره القرآن فى نشأة الجنين وتطوره داخل الظلمات الثلاث .

٢- ما أخبر به من ضيق الصدر عند الارتفاعات الشاهقة نتيجة لنقص الأكسچين .

٣- ما قرره من تكون العالم الشمسى نتيجة لانقسام الغازات والسدائم .

وغيرها كثير لا يمكن حصره فى هذا المقام .

*** تعامل الناس مع الإعجاز العلمى بطرائق ثلاث :**

١- الغلو فيها والتكلف فى تفسير القرآن بالنظريات العلمية قبل ثبوتها .

٢- التفريط فيها وإغلاق بابها حذراً مما وقع فيه الطرف الأول .

٣- الوسط بينهما وهم من أحكموا ضوابط البحث فى هذا المجال ففرقوا بين الحقائق والنظريات فلم يغلقوا الباب ولم يفتحوه على مصراعيه .

*** دعائم البحث فى مسائل الإعجاز العلمى :**

١- الحقيقة الشرعية .

٢- الحقيقة الكونية .

٣- وجه الإعجاز .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ٢ ص ٢٢٧ - ٣٣١ .

٢- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٥٧ - ٢٧٥ .

٣- التبيان فى علوم القرآن للصابونى ص ٨٥ - ١٥٦ .

٤- مباحث فى علوم القرآن لصبحى الصالح ص ٣١٣ - ٣٤٠ .

٨ أسئلة التقويم الذاتي

س١ ما معنى إعجاز القرآن ؟

س٢ اذكر شروط تحقق الإعجاز ، مبيناً كيف تحقق إعجاز القرآن للعرب .

س٣ كيف ترد على من يقولون بالصرفة ؟

س٤ اذكر وجوه الإعجاز القرآنى المذكورة فى الكتاب ، مع ذكر دلائل الإعجاز فى كل منها .

س٥ كيف تعامل الناس فى زماننا مع الإعجاز العلمى للقرآن ؟

س٦ ما هى دعائم البحث فى مسائل الإعجاز العلمى ؟



أقسام القرآن

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملماً بما يلي :

[١] تعريف القسم .

[٢] صيغة القسم .

[٣] فائدة القسم

[٤] المقسم به في القرآن .

[٥] أنواع القسم

[٦] أحوال المقسم عليه .

[٧] إجراء بعض الأفعال مجري القسم .

١ تعريف القسم

الأقسام جمع قسم بمعنى الحلف واليمين.

ويعرف الحلف بأنه: ربط النفس بالامتناع عن الشئ أو الإقدام عليه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً .

وسمى الحلف يميناً لما جرت عليه عاده العرب من أن أحدهم كان يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف .

٢ صيغة القسم

الصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل (أقسم أو أحلف) متعدياً بالباء إلى المقسم به كقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ﴾ [النحل: ٣٨] وقد يحذف فعل القسم ويكتفى بالباء أو يؤتى عوضاً عنها بالواو فى الأسماء الظاهرة أو التاء مع لفظ الجلالة مثل : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ [الليل : ١] ومثل: ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ [الأنبياء :٥٧] .

٣ فائدة القسم

القسم من المؤكدات المشهوره يساق للمنكر أو المتردد، فهو يمكن الشئ فى نفس المخاطب ويقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد ، فالقسم فى كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم فى أكمل صورة .

٤ المقسم به في القرآن

أقسم الله تعالى فى القرآن بذاته أو مخلوقاته ، وإقسامه تعالى ببعض مخلوقاته دليل على أنها من عظيم آياته .

وقد أقسم الله تعالى بذاته فى القرآن فى سبعة مواضع : منها قوله تعالى: ﴿ **قل بلى وربى لتبعثن** ﴾ [التغابن : ٧] ، وقوله تعالى: ﴿ **فوربك لنحشرنهم والشياطين**﴾ [مريم: ٦٨] ، والمواضع الاخرى فى سور (سبأ : ٣ ، يونس : ٥٣ ، الحجر : ٩٢ ، النساء: ٦٥ ، المعارج : ٤٠) .

وسائر القسم فى القرآن بمخلوقاته تعالى مثل : ﴿ **والشمس وضحاها** ﴾ [الشمس ١:] ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ [الليل : ١] ﴿ **والفجر وليال عشر** ﴾ [الفجر ١ ، ٢] .

ولله أن يحلف بما شاء على ماشاء وليس لأحد من الخلق أن يحلف إلا بالله تعالى ، فإن من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك .

٥ أنواع القسم

القسم إما ظاهر ، وإما مضمر:

١- فالظاهر : هو ما صرح فيه بفعل القسم ، وصرح فيه بالمقسم به، ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء.

وقد تدخل (لا) النافية على فعل القسم فى بعض المواضع، كقوله تعالى : ﴿**لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ [القيامة : ١ ، ٢] .

فقيل : (لا) فى الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير مثلاً : لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب ، ثم استانف فقال : أقسم بيوم القيامة ،

وبالنفس اللوامة، إنكم ستبعثـون.

وقيل: (لا) لنفى القسم كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكنى أسألك غير مقسم، أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم .

وقيل: (لا) ، زائدة وجواب القسم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : **﴿أيحسب الإنسان﴾** . الخ . والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

٢- والقسم المضمر هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التى تدخل على جواب القسم كقوله تعالى : **﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾** أي والله لتبلون .

٣- والقسم قد يكون على جملة خبرية -وهو الغالب- كقوله تعالى : **﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾** [الذاريات: ٢٣] ، وقد يكون على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى: **﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون ﴾** [الحجر : ٩٢ - ٩٣] لأن المراد التهديد والوعيد ..

٤- وجواب القسم يذكر تارة - وهو الغالب - وتارة يحذف، كما يحذف جواب (لو) كثيراً ، كقوله : **﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾** [التكاثر ٥] ، وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب ، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم ، فالتقدير مثلاً: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير، فحذف جواب القسم، وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه، كقوله تعالى: **﴿لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾** [القيامة : ١-٢] فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد **﴿ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ﴾** [القيامة: ٣] .. إلخ والتقدير : لتبعش ولتحاسبن .

٦ أحوال المقسم عليه

* المقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلابد أن يكون مما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .

* وقد أقسم الله تعالى على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها، فتارة يقسم على التوحيد كقوله تعالى: ﴿ **والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً، إن إلهكم لواحد** ﴾ [الصافات ١-٤] .

وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم** ﴾ [الواقعة : ٧٥ - ٧٧] .

وتارة على أن الرسول حق كقوله : ﴿ **يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين** ﴾ [يس ١-٣] .

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، كقوله : ﴿**والذاريات ذرواً ، فالحاملات وقراً، فالجاريات يسراً ، فالمقسمات أمراً، إنما توعدون لصادق، وإن الدين لواقع** ﴾ [الذاريات : ١ _ ٦] .

وتارة على حال الإنسان ، كقوله : ﴿ **والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثى، إن سعيكم لشتى** ﴾ [الليل : ١-٤] .

٧ إجراء بعض الأفعال مجرى القسم

إذا كان القسم يأتى لتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجرى مجراه إذا كان سياق الكلام فى معناه ، كقوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾ [آل عمران : ١٨٧] فاللام فى قوله : ﴿ **لتبيننه للناس** ﴾ لام القسم ، والجملة بعدها جواب القسم . لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف .

٨ الخلاصة

* الأقسام جمع قسم وهو الحلف .

*** صيغة القسم :**

١- الصيغة الأصلية أن يؤتى بالفعل (أقسم أو أحلف) متعديا بالباء إلى المقسم به .

٢- قد يحذف فعل القسم ويكتفى بالباء ، أو يأتى عوضاً عنها الواو أو التاء .

*** فائدة القسم :** تمكين الشئ من نفس المخاطب لإزالة الشك والإنكار والخصومة .

*** المقسم به فى القرآن :** ١- ذات الله عز جل .

٢- مخلوقاته .

*** أنواع القسم :**

١- الظاهر . ٢- المضمر .

٣- على جملة خبرية . ٤- يذكر جواب القسم أو يحذف .

*** أحوال المقسم عليه :** الأمور الغائبة الخفية أو ما لا ينبغى أن يختلف عليه .

* تجرى بعض الأفعال مجرى القسم إذا كان سياق الكلام فى معناه .

* إذا دخلت (لا) النافية على فعل القسم فإنها تحتمل وجهاً من ثلاثة :

١- نافية لمحذوف يناسب المقام . ٢- نافية للقسم .

٣- زائدة .

المراجع المساعدة :

١- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٩٠ - ٢٩٧

٩

أسئلة التقويم الذاتي

س١ اذكر معنى القسم والصيغ المستخدمة فيه .

س٢ ما هى فائدة القسم فى القرآن الكريم ؟

س٣ اذكر المقسم به فى القرآن الكريم .

س٤ هل يجوز الحلف بغير الله كالشمس أو الليل ؟ ولماذا ؟

س٥ ما هى أنواع القسم ؟ مثل لما تقول .

س٦ ما هى أحوال المقسم عليه فى القرآن الكريم ؟ مثل لما تقول .

س٧ هل يصح أن تجرى الأفعال مجرى القسم ، ومتى ؟

س٨ ما معنى دخولا (لا) النافية على القسم ؟

ثالثًا

جدل القرآن

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة ،أن تكون ملمًا بما يلي :

[١] تعريف الجدل .

[٢] طريقة القرآن في المناظرة .

[٣] أنواع مناظرات القرآن وأدلته .

١ تعريف الجدل

الجدل والجدال :ـ المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم، أصله من جدلت الحبل : أى أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه .

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ أى خصومة ومنازعة [الكهف : ٥٤] .

وأمر رسول الله أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ [النحل : ١٢٥] .

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق وإقامة البرهان على صحته وهى الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين . بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قال تعالى : ﴿ **ويجادل الذين كفروا بالباطل** ﴾ [الكهف : ٥٦] .

٢ طريقة القرآن في المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث .

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات

والنتائج التي يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلي على الجزئي فى قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزءين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئى على الكلى فى قياس الاستقراء .

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون .

(ب) ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة .

(جـ) ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة، ولا يلجأ إليه إلا العاجز عن إقامة الحجة بالظاهر الجلى فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً، وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجه، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين) : وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شئ منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه فإنا إذا قلنا: هذا محدَث ، وكل محدث فلابد له من محدِث، أو ممكن ، والممكن لابد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق ... لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » ... وقال : « فبرهانهم لا يدل على شئ معين بخصوصه ، لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلي ، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله » .. وقال: هذا

بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه ، كقوله: ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [البقرة : ١٦٤] ، وقوله تعالى ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار .. وقال تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ [الإسراء : ١٢] ، فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه » فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عيناً، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول .

٣ أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ـ وهذا النوع كثير في القرآن .

فمنه قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ،الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ [البقرة ٢١ـ٢٢]

وقوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة : ١٦٣، ١٦٤] .

(ب) مايرد به على الخصوم ويلزم به أهل العناد، ولهذا صور مختلفة :

* منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود الخالق في مثل قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون، أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين، أم له البنات ولكم البنون، أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون، أم عندهم الغيب فهم يكتبون، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون، أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾ [الطور : ٣٥ ـ ٤٣] .

* ومنها الاستدلال بالمبدأ على المعاد. كقوله تعالى: ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [سورة ق : ١٥] ، وقوله ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يكُ نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ [القيامة : ٣٦ ـ ٤٠] .

وقوله : ﴿ فلينظر الإنسان م خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ﴾ [الطارق : ٥ – ٨] ، ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى ﴾ [فصلت : ٣٩] .

* ومنها إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها، كقوله تعالى : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ [الأنعام: ٩١] رداً على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ** ﴾ [الأنعام : ٩١] .

* ومنها السبر والتقسيم، بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم ، كقوله تعالى : ﴿ **ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ [الأنعام: ١٤٢ - ١٤٤] .

* ومنها إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد كقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا الله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم** ﴾ [الأنعام : ١٠٠ - ١٠١] ، فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شئ واحد ، وأن التولد إنما يكون من اثنين، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضا فإنه خلق كل شئ ، وخلقه لكل شئ يناقض أن يتولد عنه شئ، وهو بكل شئ عليم، وعلمه بكل شئ يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور كالحار والبارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه .

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة، كمناظرات الأنبياء مع أممهم ، أو مناظرات المؤمنين مع المنافقين ، وما شابه ذلك .

٤ الخلاصة

* الجدل والجدال : المفاوضة على سبيل المنازع والمغالبة .

* طريقة القرآن فى المناظرة تعتمد على ما يعرفه الخصم فى بساطة وقوة لا تحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث .

*** أنواع من مناظرات القرآن وأدلته :**

أ- ذكر الآيات الكونية للاستدلال على أصل العقائد .

ب- ما يرد به على الخصوم ويلزم به أهل العناد ، ومنها :

١ – تقرير المخاطب بطريق الاستفهام .

٢- الاستدلال بالمبدأ على المعاد .

٣- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها .

٤- السبر والتقسيم بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم .

٥- إفحام الخصم بأن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد .

المراجع المساعدة :

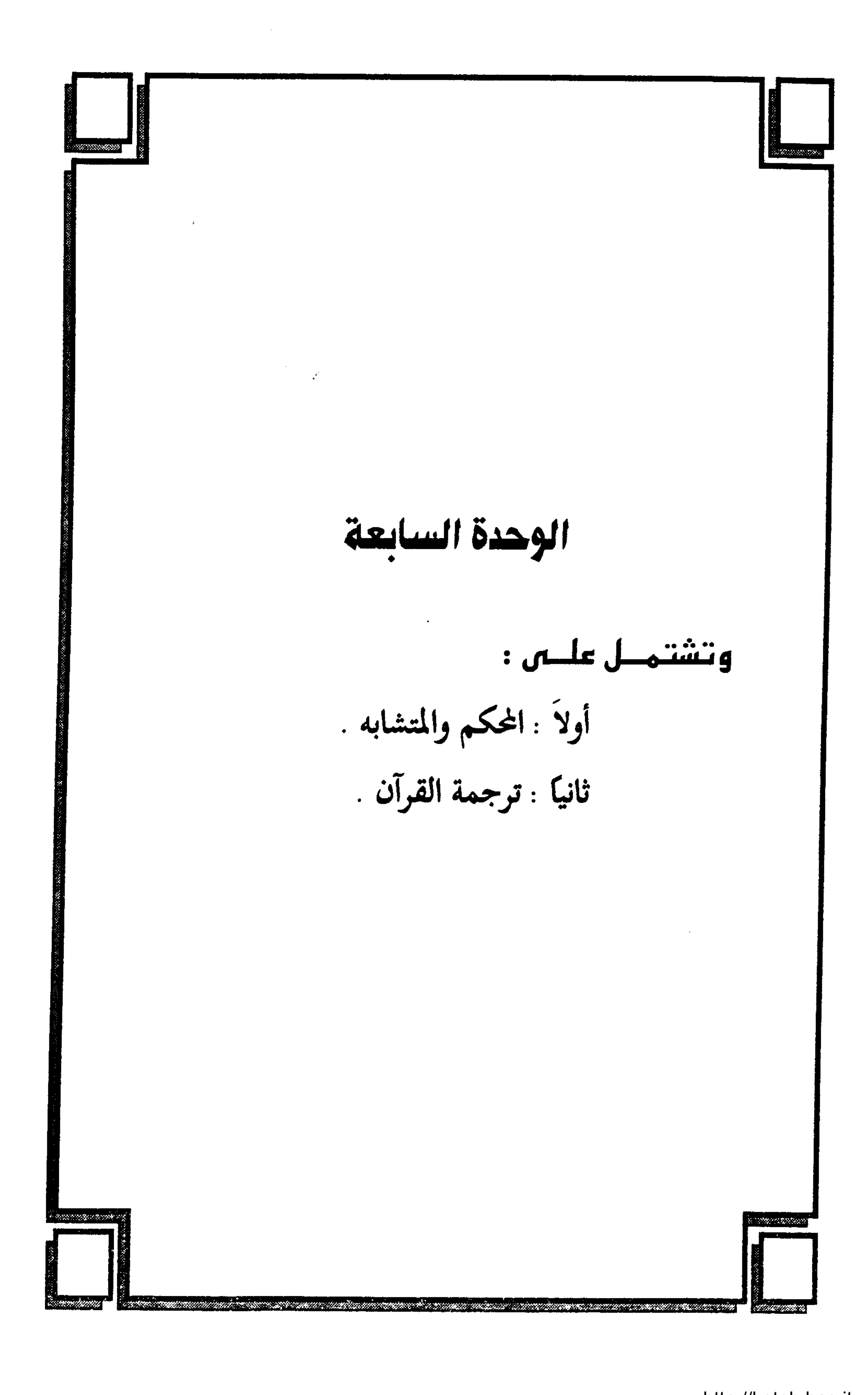
١- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٩٨ - ٣٠٤ .

٩ أسئلة التقويم الذاتي

س١ عرف الجدل .

س٢ اذكر الفرق بين طريقة القرآن وطريقة المتكلمين فى المناظرة .

س٣ ما أنواع مناظرات القرآن وأدلته ؟ مثل لكل نوع .



الوحدة السابعة

وتشتمل على :

أولاً : المحكم والمتشابه .

ثانيا : ترجمة القرآن .

أولاً المحكم والمتشابه

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً علي معرفة:

[١] معني الإحكام والتشابه في اللغة .

[٢] الإحكام والتشابه في القرآن .

[٣] المقصود بالمحكم والمتشابه بالمعني الخاص .

[٤] الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه .

[٥] معني التأويل .

[٦] ما قيل في فواتح السور .

تمهيد

★ للإحكام والتشابه إطلاقات لغوية وأخري اصطلاحية:

★ فالإحكام في اللغة يطلق علي عدة معان ترجع إلي شئ واحد وهو المنع ، فيقال : أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه من الفساد ، ويقال أحكم الفرس أي جعل له حَكَمة تمنعه من الاضطراب .

★ والتشابه في اللغة يطلق علي التماثل والتناسب المؤدى في الغالب إلي الالتباس يقال : تشابها أي أشبه كل منهما الآخر حتي التبسا ، ومنه الشبهة أي الالتباس ، وقوله تعالي : {إن البقر تشابه علينا } [البقرة : ٧٠] .

ولقد جاء في القرآن الكريم ما يدل علي أنه كله محكم وجاء فيه ما يدل علي انه كله متشابه، كما جاء فيه ما يدل علي أن بعضه محكم وبعضه متشابة ، ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة .

١ الأحكام والتشابه بالمعنى العام

فالقرآن الكريم كله محكم على معنى الإتقان والصيانة وعدم تطرق الخلل إليه، قال تعالى ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود : ١] .

والقرآن الكريم كله متشابه على معنى أن بعضه يشبه بعضا فى الحسن والإحكام والإعجاز بحيث يصدق بعضه بعضا، وبحيث يصعب التمييز بين آياته وكلماته فى ذلك، قال تعالى :﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٢ الأحكام والتشابه بالمعنى الخاص

والقرآن الكريم منه ما هو محكم قد اتضحت دلالته على المعنى المراد ومنه ماهو متشابه لم تتضح دلالته ويحتاج إلى بيان، كما قال تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ [آل عمران: ٧] وفى إطار هذا التقسيم الأخير سيكون حديثنا فى هذه الدراسة .

٣ المحكم والمتشابه بالمعنى الخاص

اختلف أهل العلم فى المقصود بالمحكم والمتشابه فى آية آل عمران على عدة أقوال منها :

(أ) المحكم: ما عرف المراد منه، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه .

(ب) المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه : ما احتمل أوجهاً .

(جـ)المحكم: ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه: ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره .

ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده ، وللمتشابه: بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته التي في مثل قوله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [طه : ٥] ، وقوله ﴿ **كل شئ هالك إلا وجهه** ﴾ [القصص : ٨٨] . وقوله : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ [الفتح : ١٠] . وقوله ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وقوله : ﴿ **وجاء ربك** ﴾ [الفجر : ٢٢] إلى غير ذلك ، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم ، وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة .

٤ الاختلاف في معرفة المتشابه

وكما وقع الاختلاف فى معنى كل من المحكم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه ، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم فى قوله تعالى : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ هل هو مبتدأ خبره : ﴿ **يقولون** ﴾ والواو للاستئناف ، والوقف على قوله :﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ أو هو معطوف وجملة (يقولون) حال، والوقف على قوله : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ .

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبى بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به » ، وبقراءة ابن مسعود: « وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به » .

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، فعن عائشة قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتـاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ قال رسول الله ﷺ: « فإذا رأيت الذيـــن يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » [متفق عليه] .

وذهب إلى الرأي الثاني (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد، أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ قال: يعلمون تأويله ويقولون: (آمنا به) . واختار هذا القول النووي، فقال في شرح مسلم: إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لاسبيل لأحد من الخلق إلى معرفته .

التوفيق بين الرأيين بفهم معني التأويل :

بالرجوع إلى معنى (التأويل) يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان :

الأول : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين .

الثاني : التأويل بمعنى التفسير، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه .

الثالث : التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة ومالها من حقائق الصفات، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان**

توابا ﴾ [متفق عليه] [سورة النصر : ٣] .

فالذين يقولون بالوقف على قوله : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ [آل عمران : ٧] ويجعلون : ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ استئنافاً ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث ، أى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله .

والذين يقولون بالوقف على قوله: ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ على أن الواو للعطف وليست للاستئناف، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني أي التفسير، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثورى فيه: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف الاختلاف في معنى التأويل .

ففى القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا ، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة ، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه فى اللفظ والمعنى الكلي إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها، وأما نفس الحقيقة فهى من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [طه : ٥] قالوا « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة » فبينوا أن الاستواء معلوم، وأن كيفية ذلك مجهولة .

وكذلك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر ، ففيه ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة، ففى الآخرة ميزان وجنة ونار، وفي الجنة : ﴿ **أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى** ﴾ [محمد : ١٥] . وفيها ﴿ **سرر مرفوعة ، وأكواب**

موضوعة ،ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة ﴾ [الغاشية: ١٣ـ١٦] .. وذلك نعلمه ونؤمن به وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد، وما فى الآخرة يمتاز عما فى الدنيا ، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا ، وهى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله .

٥ كلمة فيما يتعلق بفواتح السور

لقد انقسم العلماء فى تأويل هذه الفواتح فى الجملة إلى مذهبين :

أحدهما : أن لهذه الفواتح علماً مستوراً وسراً محجوباً استأثر الله بعلمه وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق رضى الله، فقد روى عنه أنه قال: «فى كل كتاب سر، وسّره فى القرآن فى أوائل السور»[١].

ثانيها : أن لهذه الفواتح مراداً معلوماً ومعنى يمكن الوصول إليه بالنظر والبحث، وإلى هذا ذهب جمهور الباحثين، وهو المروى عن ابن عباس وعلى ابن أبى طالب وجمع كبير من الصحابة[٢].

ولأصحاب هذا المذهب الثانى تأويلات وتحليلات مختلفة ، قال ابن فارس يحتمل أن تكون كلها مقصودة، ومن أقرب هذه التأويلات إلى النظر ما يلى :

* ما ذهب إليه قطرب والفراء والمبرد وعامة علماء العربية وجمع عظيم من المحققين من أن هذه الأحرف المقطعة إنما افتتحت بها السور لتدل على أن القرآن ليس إلا كتاباً ألفّ من هذه الأحرف الهجائية (أ - ب - ت - ث - ج .....) إلخ، هى تلك التى تبنون كلامكم وأشعاركم منها، ومع ذلك فلن يستطيعوا أن تؤلفوا

١- انظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبى ١ - ١٥٤، والبرهان للزركشى ١ - ١٧٢.

٢- انظر القرطبى ١ - ١٥٥، ومشكل القرآن لابن قتيبة ٦٣ - ٦٤

من هذه الأحرف كلاماً مثله [١]

والذى يرجح هذا التفسير أن هذه السور التى افتتحت بالأحرف المقطعة غالبا ما يذكر بعدها ما يدل على معنى الكتاب ﴿ **ألم، ذلك الكتاب** ﴾ وفى سورة الأعراف ﴿**المص كتاب أنزل إليك** ﴾ وفى سورة يونس ﴿ **الر، تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ إلخ.

وكأن المعنى باختصار أن الله يقول فى هذه السور يا أمة العرب ، يا أرباب الفصاحة ويا أهل البلاغة .. لقد أنزلت هذا الكتاب من هذه الأحرف ، وركبتُ كلماته وعباراته منها، وأنتم تتكلمون بها، هذه هى المادة الخام أوجدتها أمامكم فإذا كنتم تكذبون محمداً ﷺ فأتوا بسورة من مثل الكتاب المنزل على محمد ﷺ ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ ، وبعد ذلك أحضروا لجنة تحكيم تحكم بينى وبينكم، وأنا لا أدعو هذه الجنة بل ادعوها أنتم حتى لا يقال إن محمداً ﷺ رجل متعصب! قال تعالى : ﴿ **وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ وعلماء اللغة العربية يقولون : إن شرطية، ولم نافية فى الماضى والحاضر، ولن نافية فى المستقبل، أى إن لم تفعلوا فى الماضى والحاضر ولن تفعلوا فى المستقبل فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة، والله أعلم.

---

[١] انظر البرهان ١ -١٨٥ . تفسير القرطبى ١ -٦٧ . الفخر الرازى ٢ · ٢٣

٦ الخلاصة

* الإحكام فى اللغة : المنع .

- والتشابه فى اللغة : التماثل .

* **القرآن الكريم :** كله محكم على معنى الإتقان والصيانة ، وكله متشابه على معنى التماثل فى الحسن والإحكام ، ومنه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه بالمعنى الخاص .

* **ما قيل فى المحكم والمتشابه بالمعنى الخاص :**

١- المحكم : ما عرف المراد منه ، والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه .

٢- المحكم : ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه : ما احتمل أوجهاً .

٣- المحكم : ما لم يحتج إلى بيان ، والمتشابه : ما احتاج إلى بيان .

ومثلوا للمحكم فى القرآن : بناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ووعده ، ووعيده .

ومثلوا المتشابه فيه : بمنسوخه ، وكيفيات أسماء الله وصفاته ، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم ، وحقائق اليوم الآخر ، وعلم الساعة .

* **اختلف العلماء فى إمكان معرفة المتشابه :**

١- فمنهم من قال بعدمه ، لقراءته بالاستئناف .

٢- ومنهم من قال بجوازه ، لقراءاته بالعطف .

وكلا الرأيين صواب تبعاً لمعنى التأويل الذى يحتمل ثلاثة معان :

١- صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح

٢- التفسير (وبه أخذ الفريق الثانى) .

٣- الحقيقة التى يؤول إليها الكلام (وبه أخذ الفريق الأول) .

*** ما قيل فى فواتح السور : قولان :**

الأول : أنها علم مستور ، وسر محجوب (وبه قال الصديق رضى الله عنه) .

الثانى : أن لها مراداً معلوماً يحتمل أن يكون تحدى العرب بحروف لغتهم .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى ص ١٦٦ - ١٩٨ .

٢- مباحث فى علون القرآن لمناع القطان ص ٢١٤ - ٢٢٠ .

٣- مباحث فى علوم القرآن لصبحى صالح ص ٢٨١ - ٢٨٦ .

٧ أسئلة التقويم الذاتي

س١ ما معنى الإحكام والتشابه في اللغة ، وبالنسبة للقرآن الكريم ؟

س٢ هل يمكن معرفة المتشابه من القرآن ؟ وضح مبيناً دليل ما تقول .

س٣ ما معنى التأويل ؟ وكيف يمكن من معرفة معنى التأويل التوفيق بين الرأيين في معرفة المتشابه ؟

س٤ اذكر ما ذهب إليه السلف في فواتح السور .



ترجمة القرآن وتفسيره بغير لغته

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً علي معرفة:

[١] معني الترجمة .

[٢] أقسام الترجمة .

[٣] حكم الترجمة الحرفية للقرآن .

[٤] حكم الترجمة التفسيرية للقرآن .

[٥] الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية .

[٦] شروط الترجمة التفسيرية .

[٧] موقف الأزهر من ترجمة معاني القرآن الكريم .

[٨] فتاوي العلماء في شأن الترجمة وفي حمل المصحف إلي ديار الكفار .

١ معنى الترجمة

تفسير القرآن بغير لغته ، أو الترجمة التفسيرية للقرآن ، بحث نرى من الواجب علينا أن نعرض له ؛ لما له من تعلق وثيق بموضوع هذا الكتاب .

الترجمة فى اللغة :

وضعت كلمة ترجمة فى اللغة العربية ، لتدل على أحد معان أربعة :

أولها : تبليغ الكلام لمن لم يبلغه . ومنه قول الشاعر :

إن الثمانين – وبلغتها – قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ثانيها : تفسير الكلام بلغته التى جاء بها . ومنه قيل فى ابن عباس : إنه ترجمان القرآن .

ثالثها : تفسير الكلام بلغة غير لغته .

رابعها : نقل الكلام من لغة إلى أخرى .

الترجمة فى العرف :

نريد بالعرف هنا عرف التخاطب العام ، لا عرف طائفة خاصة ولا أمة معينة . جاء هذا العرف الذى تواضع عليه الناس جميعاً . فخص الترجمة بالمعنى الرابع اللغوى فى إطلاقات اللغة السابقة ، وهو نقل الكلام من لغة إلى أخرى .

٢ أقسام الترجمة

وعلى هذا فالترجمة تنقسم إلى قسمين : ترجمة حرفية ، وترجمة معنوية أو تفسيرية .

أما الترجمة الحرفية : فهى نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى ، مع مراعاة

الموافقة فى النظم والترتيب ، والمحافظة على جميع معانى الأصل المترجم.

وأما الترجمة التفسيرية : فهى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

٣ الترجمة الحرفية للقرآن

الترجمة الحرفية للقرآن : إما أن تكون ترجمة بالمثل ، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل .

أما الترجمة الحرفية بالمثل : فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته ، وأسلوبها محل أسلوبه ، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى المقيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية ، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز ؛ وذلك لأن : القرآن نزل لغرضين أساسيين :

أولهما : كونه آية دالة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وذلك بكونه معجزاً للبشر ، لا يقدرون على الإتيان بمثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك .

وثانيهما : هداية الناس لما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم .

أما الغرض الأول ، وهو كونه آية على صدق النبى ﷺ فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقاً ؛ فإن القرآن – وإن كان الإعجاز فى جملته لعدة معان كالإخبار بالغيب ، واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل ، وغير ذلك مما عد من وجوه إعجازه – إنما يدور الإعجاز السارى فى كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة ، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقاً ، فإن اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة ، ولكن لكل لغة خواصها لا يشاركها فيها غيرها من اللغات ، وإذاً فلو

ترجم القرآن ترجمة حرفية - وهذا محال - لضاعت خواص القرآن البلاغية ، ولنزل من مرتبته المعجزة ، إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر ، ولفات هذا المقصد العظيم الذى نزل القرآن من أجله على محمد ﷺ .

وأما الغرض الثانى ، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه ، وهذا يرجع بعضه إلى المعانى الأصلية التى يشترك فى تفاهمها وأدائها كل الناس ، تقوى عليها جميع اللغات ، وهذا النوع من المعانى يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه ، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعانى الثانوية ونجد هذا كثيراً فى استنباطات الأئمة المجتهدين ؛ وهذه المعانى الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنا . والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعانى الأولية ، فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعانى الثانوية ضرورة أنها لازمة للقرآن دون غيره من سائر اللغات .

ومما تقدم يعلم : أن الترجمة الحرفية للقرآن ، لا يمكن أن تقوم مقام الأصل فى تحصيل كل ما يقصد منه ؛ لما يترتب عليه من ضياع الغرض الأول برمته ، وفوات شطر من الغرض الثانى .

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل : فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذوا بحذو بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته ، وهذا أمر ممكن ، وهو إن جاز فى كلام البشر ، لا يجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز ؛ لأن فيه من فاعله إهداراً لنظم القرآن وإخلالا بمعناه وانتهاكا لحرمته ، فضلا عن كونه فعلا لا تدعو إليه ضرورة .

٤ الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن

اتضح لنا مما سبق معنى الترجمة الحرفية بقسميها ، وأقمنا الدليل بما يناسب المقام على عدم إمكان الترجمة الحرفية بالمثل ، وعدم جواز الترجمة الحرفية بغير المثل وإن كانت ممكنة ، ولكن بقي بعد ذلك هذا السؤال : هل الترجمة الحرفية بقسميها – على فرض إمكانها في الأول وجوازها في الثاني – تسمى تفسيراً بغير لغته ؟ أو لا تدخل تحت مادة التفسير ؟ وللجواب عن هذا نقول :

إن الترجمة الحرفية بالمثل ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته ؛ لأنها عبارة عن هيكل القرآن بذاته ، إلا أن الصورة اختلفت باختلاف اللغتين : المترجم منها والمترجم إليها . وعلى هذا فأبناء اللغة المترجم إليها يحتاجون إلى تفسيره وبيان ما فيه من أسرار وأحكام ، كما يحتاج العربي الذي نزل بلغته إلى تفسيره والكشف عن أسراره وأحكامه ؛ ضرورة أن هذه الترجمة لا شرح فيها ولا بيان ، وإنما فيها إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه ، ونقل معنى الأصل كما هو من لغة إلى لغة أخرى .

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل فهي ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته ، لأنها عبارة عن هيكل للقرآن منقوص غير تام ، وهذه الترجمة لم يترتب عليها سوى إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه في تأدية بعض معناه ، وليس في ذلك شئ من الكشف والبيان ، لا شرح مدلول ، لا بيان مجمل ، ولا تقييد مطلق ، ولا استنباط أحكام ، ولا توجيه معان ، ولا غير ذلك من الأمور التي اشتمل عليها التفسير المتعارف .

٥ الترجمة التفسيرية للقرآن

الترجمة التفسيرية أو المعنوية ، تقدم لنا أنها عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معـانيـه المرادة منه ، وذلك بأن تفـهـم المعنى الذى يراد من الأصل ، ثم نأتى له بتركيب من اللغـة المترجم إليهـا يؤديه على وفـق الغرض الذى سيق له .

وعلم مما تقدم مقدار الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية ، ولإيضاح هذا الفرق نقول :

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك لا تبسطها كل البسط** ﴾ ... ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق ، وعن مدها غاية المد ، مثل هذا التعبير فى اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدى المعنى الذى قصده القرآن ، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن ، ويقول فى نفسه : إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذى نهى عنه القرآن ، لأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه ، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة ، المعنى الذى أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ . أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية ، فإنه يأتى بالنهى عن التبذير والتقتير ، مصورين بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان ، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليهـا ، ويناسب إلف من يتكلم بها ، من هذا يتبين أن الغرض الذى أراده الله من هذه الآية ، يكون مفهوما بكل سهولة ووضوح فى الترجمة التفسيرية ، دون الترجمة الحرفية .

إذا علم هذا ، أصبح من السهل علينا وعلى كل إنسان أن يقول بجواز ترجمة

القرآن ترجمة تفسيرية بدون أن يتردد أدنى تردد ، فإن ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التى نزل بها.

وحيث اتفقت كلمة المسلمين ، وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية ؛ بدون إحاطة بجميع مراد الله ؛ فإنا لا نشك فى أن الترجمة التفسيرية للقرآن داخلة تحت هذا الإجماع أيضا ؛ لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير ، لا لعبارة الأصل القرآنى .

٦ الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية

لو تأملنا أدنى تأمل ؛ لوجدنا أنه يمكن أن يفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية من جهتين .

الجهة الأولى : اختلاف اللغتين . فلغة التفسير تكون بلغة الأصل ، كما هو المتعارف المشهور . بخلاف الترجمة التفسيرية فإنها تكون بلغة أخرى .

الجهة الثانية : يمكن لقارئ التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته فإن وجده خطأ نبه عليه وأصلحه . ولو فرض أنه لم يتنبه لما فى التفسير من خطأ تنبه له قارئ آخر ، أما قارئ الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك ؛ لجهله بنظم القرآن ودلالته ، بل كل ما يفهمه ويعتقده ؛ أن هذه الترجمة التى يقرؤها ويتفهم معناها تفسير صحيح للقرآن ، وأما رجوعه إلى الأصل ومقارنته بالترجمة فليس مما يدخل تحت طوقه ما دام لم يعرف لغة القرآن .

٧ شروط الترجمة التفسيرية

أولا : أن تكون الترجمة على شريطة التفسير ، لا يعول عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة فى الشريعة الإسلامية ، فلابد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير عربى مستمد من ذلك ؛ أما إذا استقل برأية فى استحضار معنى القرآن، أو اعتمد على تفسير ليس مستمداً من تلك الأصول ، فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها ، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمداً من تلك المناهل ، معتمداً على هذه الأصول .

ثانيا : أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن ، هذا شرط فى المفسر أيضا ؛ فإنه لو مال واحد منهما إلى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره ، فإذا بالمفسر قد فسر طبقاً لهواه ، وإذا بالمترجم وقد ترجم وفقاً لميوله ، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهداه .

ثالثاً : أن يكون المترجم عالما باللغتين : المترجم منها والمترجم إليها ، خبيراً بأسرارهما ، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما .

رابعاً : أن يكتب القرآن أولا ، ثم يؤتى بعده بتفسيره ، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن .

٨ حكم ترجمة القرآن

ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية (الترجمة التفسيرية) :

وهو الإطلاق الثالث المستند إلى اللغة أيضاً ويراد به تفسير القرآن بلغة غير لغته ، أى بلغة عجمية لا عربية . ولا ريب عندنا فى أن تفسير القرآن بلسان أعجمى لمن لا

يحسن العربية ، يجرى فى حكمه مجرى تفسيره بلسان عربى لمن يحسن العربية فكلاهما عرض لما يفهمه المفسر من كتاب الله بلغة يفهمها مخاطبه ، لا عرض لترجمة القرآن نفسه ، وكلاهما حكاية لما يستطاع من المعانى والمقاصد ، لا حكاية لجمع المقاصد ، وتفسير القرآن الكريم يكفى فى تحققه أن يكون بياناً لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ولو جاء على احتمال واحد .

ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى (الترجمة الحرفية) :

وهذا هو الإطلاق الرابع المستند إلى اللغة . ثم هو الإطلاق الوحيد فى عرف التخاطب الأممى العام .

وهو ما سبقت الإشارة إليه فى بحثنا بالترجمة الحرفية ، وقد بينا هناك ما يفيد أنها حرام ولا تجوز شرعاً . ونبين لك هنا باختصار حيثيات أو أدلة هذا الحكم ..

الأول : أن طلب المستحيل العادى حرمه الإسلام ، أيا كان هذا الطلب.

ولأن القرآن نفسه أعذر حين أنذر بأنه لا يمكن أن يأتى الجن والإنس بمثله ، وإن اجتمعوا له وكان بعضهم لبعض ظهيرا .

الثانى : أن محاولة هذه الترجمة فيها ادعاء عمل لإمكان وجود مثل أو أمثال للقرآن ، وذلك تكذيب شنيع لصريح الآية السابقة . ولقوله سبحانه : ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله** ﴾ .

الثالث : أن محاولة هذه الترجمة تشجع الناس على انصرافهم عن كتاب ربهم مكتفين ببدل أو أبدال يزعمونها ترجمات له . وإذا امتد الزمان بهذه الترجمات فسيذهب عنها اسم الترجمة ويبقى اسم القرآن وحده علماً عليها ، ويقولون : هذا قرآن بالانجليزية ، وذاك قرآن بالفرنسية ، وهكذا ، ثم يحذفون هذا المتعلق بعد ، ويجترئون بإطلاق لفظ القرآن على الترجمة

وهل تشك بعد ذلك فى حرمة كل ما يؤدى إلى صرف الناس عن كتاب الله، وإلى تفرقهم عنه وضلالهم فى مسماه؟

الرابع : أننا لو جوزنا هذه الترجمة ، ووصل الأمر إلى حد أن يستغنى الناس عن القرآن بترجماته ، لتعرض الأصل العربى للضياع كما ضاع الأصل العبرى للتوراه والإنجيل .

الخامس : أن الأمة أجمعت على عدم جواز رواية القرآن بالمعنى . وأنت خبير بأن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفى ، تساوى روايته بالمعنى .

وعلى هذا يقال إذا كانت رواية القرآن بالمعنى فى كلام عربى ممنوعة إجماعا ، فهذه الترجمة ممنوعة كذلك ، قياساً . على هذا المجمع عليه ، بل هى أحرى بالمنع ، للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل .



٩ موقف الأزهر من ترجمة معاني القرآن الكريم

بعد مناقشات موسعة ودراسات مستفيضة قررت مشيخة الأزهر فى مصر إعداد ترجمة تفسيرية للقرآن الكريم، وشكلت لذلك لجنة برئاسة مفتى مصر الأكبر لوضع تفسير عربى دقيق للقرآن الكريم تمهيدا لترجمته ترجمة دقيقة بواسطة لجنة فنية مختارة، وقد انتهت هذه اللجنة إلى وضع دستور تلتزم به أثناء قيامها بهذا العمل الجليل، ثم بعثت به إلى أكابر علماء العالم الإسلامى تستطلع رأيهم حوله، و فيما يلى ذكر هذه القواعد التى قررتها اللجنة فى هذا المقام حتى نضيفها إلى القواعد السابقة التى سبق الحديث عنها فى شروط الترجمة التفسيرية:

١ - أن يكون التفسير خالياً ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية، إلا ما استدعاه فهم الآية.

٢- ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية، فلا يذكر مثلاً التفسير العلمي للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق، ولا رأى الفلكيين فى السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم؛ إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربى، ويوضح موصع العبرة والهداية فيها.

٣- إذا مست الحاجة إلى التوسع فى تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة فى حاشية التفسير.

٤- ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها، ولا تتعسف فى تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك.

٥- أن يفسر القرآن بقراءة حفص، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها.

٦- أن يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض.

٧- أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث، وأعان على فهم الآية.

٨- عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت مرتبطة بموضوع واحد، ثم تحرر معانى الكلمات فى دقة؛ ثم تفسر معانى الآية أو الآيات مسلسلة فى عبارة واضحة قوية، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات فى الوضع المناسب.

٩- ألا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات.

١٠- يوضع فى أوائل كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها فى السورة: أمكية هى أم مدنية؟ وماذا فى السورة المكية من آيات مدنية، والعكس

١١- توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه فى كل ما يحتويه من

فنونه ، كالدعوة إلى الله ، وكالتشريع ، والقصص والجدل ، ونحو ذلك ؛ كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها .

طريقة التفسير:

ورأت اللجنة بعد ذلك أن تضع قواعد خاصة بالطريقة التى تتبعها فى تفسير معانى القرآن الكريم، ننشرها فيما يلى:

١- تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور، فتفحص مروياتها وتنقد، ويدون الصحيح منها بالتفسير، مع بيان وجه قوة القوى، وضعف الضعيف من ذلك.

٢- تبحث مفردات القرآن الكريم بحثاً لغوياً، وخصائص التراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً وتدون.

٣- تبحث آراء المفسرين بالرأى والتفسير بالمأثور، ويختار ما تفسر الآية به، مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول.

٤- وبعد ذلك كله يصاغ التفسير مستوفياً ما نص على استيفائه فى الفقرة الثانية من القواعد السابقة. وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأفهام جمهرة المتعلمين، خال من الإغراب والصنعة [١].

١- مناهل العرفان للزرقانى : ١٨٤/٢ - ١٨٦

١٠

من فتاوي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية بشأن ترجمة القرآن

س : ترجمة القرآن أو بعض آياته إلى لغة أجنبية أو أعجمية بقصد نشر الدعوة الإسلامية الحقة في بلاد غير المسلمين، هل في هذا العمل ما يخالف الشرع والدين؟

* الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه.. وبعد:

ترجمة القرآن أو بعض آياته والتعبير عن جميع المعانى المقصود إليها من ذلك غير ممكن، وترجمته أو بعضه ترجمة حرفية غير جائزة لما فيها من إحالة المعانى وتحريفها .

أما ترجمة الإنسان ما فهمه من معنى آية أو أكثر وتعبيره عما فهمه من أحكامه وآدابه بلغة إنجليزية أو فرنسية أو فارسية مثلا لينشر ما فهمه من القرآن ويدعو الناس إليه فهو جائز، كما يفسر الإنسان ما فهمه من القرآن أو آيات منه باللغة العربية وذلك بشرط أن يكون أهلا لتفسير القرآن وعنده قدرة على التعبير عما فهمه من الأحكام والآداب بدقة ، فمن لم تكن لديه وسائل تعينه على فهم القرآن أو لم يكن لديه اقتدار على التعبير عنه بلغة عربية أو غير عربية تعبيرا دقيقا فلا يجوز له التعرض لذلك خشية أن يحرف كلام الله عن مواضعه فينعكس عليه قصده، ويصير قصده المعروف منكرا وإرادته الإحسان إساءة[١] .

س : هل يمكن أن يترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية مثلاً ويقرؤه الكفار، والله تعالى يقول ﴿ **إنه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ ومكتوب

١ - فتاوى اللجنة الدائمة ١٣٢/٢

على عنوان هذا الكتاب **﴿ولله ما فى السموات وما فى والأرض وكان الله بكل شيء محيطا ، ويستفتونك فى النساء﴾** ؟

* الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه.. وبعد:

لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة مماثلة فى دقة تعبيره وعلو أسلوبه وجمال سبكه وإحكام نظمه، وتقوم مقامه فى إعجازه وتحقيق جميع مقاصده من إفادة الأحكام والآداب، والإبانة عن العبر والمعانى الأصلية والثانوية ونحو ذلك مما هو من خواصه ومزاياه المستمدة من كمال بلاغته وفصاحته ، ومن حاول ذلك فمثله كمثل من يحاول أن يصعد إلى السماء بلا أجهزة ولا سلم، أو يحاول أن يطير فى الجو بلا أجنحة ولا آلات .

ويمكن أن يعبر العالم عما فهمه من معانى القرآن حسب وسعه وطاقته بلغة أخرى ليبين لأهلها ما أدركه فكره من هداية القرآن وما استنبطه من أحكامه أو وقف عليه من عبره ومواعظه، لكن لا يعتبر شرحه لتلك بغير اللغة العربية قرآناً ولا ينزل منزلته من جميع النواحى بل هو نظير تفسير القرآن باللغة العربية فى تقريب المعانى والمساعدة على الاعتبار واستنباط الأحكام، ولا يسمى ذلك التفسير قرآناً، وعلى هذا يجوز للجنب والكفار مس ترجمة معانى القرآن بغير اللغة العربية كما يجوز مسهم تفسيره باللغة العربية .

١١ هل يجوز حمل المصحف إلى بلاد الكفر

أجابت على هذا السؤال اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية وهذا نص الفتوى :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله آله وصحبه.. وبعد:

جـ- حمل المسلم المصحف ـ القرآن ـ إلى بلاد الكفر من المسائل التى اختلف الفقهاء فى حكمها:

* فقال جماعة منهم بجواز حمله إلى بلادهم، وقال آخرون بمنع ذلك، لنهي النبى ﷺ عن السفر به إلى بلادهم خشية أن يمتهنوه أو يحرفوه أو يشبهوا على المسلمين فيه، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ «نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو» وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان ينهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو، «لا تسافروا بالقرآن فإني لا آمن أن يناله العدو» [رواه مالك وأحمد والنسائى وابن ماجه] .

* وقال آخرون يجوز حمله إلى بلادهم للبلاغ وإقامة الحجة عليهم، وللتحفظ والتفهم لأحكامه عند الحاجة إذا كان للمسلمين قوة أو سلطان أو ما يقوم مقامهما من العهود والمواثيق ونحو ذلك مما يكفل حفظه ويرجى معه التمكن من الانتفاع به فى البلاغ والحفظ والدراسة، ويؤيد ذلك ما ورد فى آخر حديث النهى عن السفر به إلى بلادهم من التعليل.

وهذا الأخير هو الأرجح ، لحصول المصلحة مع انتفاء المفسدة التى خشيها النبى ﷺ (١) .

١- فتاوى اللجنة الدائمة: ٤٢/٤، ٤٣]

١٢ الخلاصة

*** معنى الترجمة :**

١- نقل الكلم من لغة إلى لغة بدون بيان لمعنى الأصل المترجم .

٢- تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى .

*** أقسام الترجمة :**

١- ترجمة حرفية : نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة فى النظم والترتيب ، والمحافظة على جميع معانى ومقاصد الأصل المترجم .

٢- ترجمة تفسيرية : شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه .

*** الترجمة الحرفية للقرآن :**

١- بالمثل : غير ممكنة . ٢- بغير المثل : ممكنة وغير جائزة .

وهى لا تعتبر تفسيراً للقرآن .

*** الترجمة التفسيرية للقرآن :** ممكنة وجائزة باتفاق .

*** الفرق بين التفسير وبين الترجمة التفسيرية من جهتين :**

الأولى : اختلاف اللغتين .

الثانية : إمكانية فهم القارئ للنص الأصلى فى التفسير دون الترجمة .

*** شروط الترجمة التفسيرية :**

١- أن تكون على شريطة التفسير

٢- أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة .

٣- أن يكون المترجم عالمًا باللغتين .

٤- أن يكتب القرآن أولاً ثم تفسيره ثم ترجمة التفسير .

* لا تعتبر الترجمة التفسيرية للقرآن كالقرآن فى منزلته بل تعتبر كالتفسير .

* يجور حمل المصحف إلى بلاد الكفار - على الراجح - لما فيه من مصلحة وانتفاء ما يخشى من المفسدة .

المراجع المساعدة :

١- مناهل العرفان للزرقانى جـ٢ ص ٣ - ٦٩ .

٢- مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٣١٢ - ٣٢٢ .

١٣ أسئلة التقويم الذاتي

س١ بين معانى الترجمة وأقسامها .

س٢ ما الذى يجوز من الترجمة وما الذى لا يجوز مع إمكانه ، وما الذى لا يمكن فى حق الكتاب العزيز ؟ ولماذا ؟

س٣ وضح الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية .

س٤ اذكر شروط الترجمة التفسيرية .

س٥ هل تعتبر الترجمة التفسيرية للقرآن كالقرآن فى منزلته ؟

س٦ وضح حكم حمل المصحف إلى ديار الكفار مع ذكر الأدلة على ما تقول .

س٧ وضح موقف الأزهر الشريف من ترجمة معانى القرآن الكريم .

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

■ الوحـــدة الثانيـــة
نـزول القرآن وما يتعلق به

■ الوحـــدة الثالثـــة

أسبـــاب النـــزول

الموضوع	الصفحة

■ الوحدة الرابعة

أولاً : جمع القرآن وتدوينه وكتابته

الموضوع	الصفحة

ثانيًا : القــراءات والقـــراء

الموضوع	الصفحة

■ الوحدة الخامسة

أولاً : المكي والمدني

الموضوع	الصفحة

ثانيًا : الوقف والابتداء

■ الوحدة السادسة

أولاً : إعجاز القرآن

ثانيًا : أقسام القرآن

ثالثًا : جـدل القـرآن

■ الوحـدة السـابعة

أولاً : المحكم والمتشابه

الموضوع	الصفحة
* تمهيد	١٨٧
الإحكام والتشابه بالمعنى العام	١٨٨
الإحكام والتشابه بالمعنى الخاص	١٨٨
المحكم والمتشابه بالمعنى الخاص	١٨٨
الاختلاف فى معرفة المتشابه	١٨٩
التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل	١٩٠
كلمة فيما يتعلق بفواتح السور	١٩٢
* الخلاصة	١٩٤
* المراجع المساعدة	١٩٥
* أسئلة التقويم الذاتى	١٩٦

ثانيًا : ترجمة القرآن وتفسيره بغير لغته



جامعة الأمريكية المفتوحة

مؤسسة أكاديمية مستقلة

«طلب العلم فريضة على كل مسلم»

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بكالوريوس في الدراسات الإسلامية

شروط القبول:	◄ شهادة الثانوية العامة ◄ إجادة اللغة العربية كتابةً ونطقًا
تكلفة الدراسة:	◄ ٤٠ دولارًا للساعة الدراسة ◄ ٣٥ دولارًا رسوم تسجيل
متطلبات التخرج:	◄ دراسة ١٣٢ ساعة معتمدة ◄ كتابة بحث التخرج
	النجاح فى الاختبار الشامل فى المحاور الآتية:
	• العقيدة الإسلامية • القرآن الكريم وعلومه • السنة وعلومها
	• الفقه الإسلامى وأصوله • اللغة العربية وفنونها

B.A. IN ISLAMIC STUDIES

Admission Req.	► High School Diploma or equivalent
	► Ability to read and write basic Arabic
	► Pass an oral examination in basic Arabic
Tuition & Fees	► $ 40.00 per credit hour & cost of study materials
	► $ 35.00 registration fee
Graduation Req.	► Completing 132 credit hours
	► Writing a research paper for graduation
	► Passing a comprehensive examination in:
	• Islamic creed (`Aqida) • Holy Qur' an and its Sciences
	• Sunnah and its Sciences • Islamic Jurisprudence • Arabic

ماجستير في الدراسات الإسلامية

شروط القبول:	◄ بكالوريوس دراسات إسلامية أو اجتياز اختبار المعادلة
	للحاصلين على بكالوريوس فى تخصصات أخرى
	◄ إجادة اللغة العربية كتابةً ونطقًا
تكلفة الدراسة:	◄ ٦٠ دولارًا للساعة الدراسة ◄ ٥٠ دولارًا رسوم تسجيل
متطلبات التخرج:	◄ إنهاء ٣٨ ساعة معتمدة متضمنة ساعات الأطروحة
	◄ النجاح فى الختبار الشامل ◄ كتابة الأطروحة

رئيس الهيئة التاسيسية

د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة

د. صلاح الصاوي

The American Open University • 3400 Payne St., Suite 200 • Falls Church, VA 22041 U.S.A

Tel (703) 671-2115 • Fax (703) 671-2377 • e-mail: info@open-university.edu • http://www.open-university.e